نشأة التاريخ عند العرب
وتطوره خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة

١ - يكوّن علم التاريخ عند العرب جزءاً من التطور الثقافي العام، وصلته بعلم الحديث وبالأدب بصورة خاصة وثيقة وتستحق اهتماماً خاصاً، ثم إن ظهور الإسلام، وتكوين الإمبراطورية، والتصادم بين الآراء والتيارات الحضارية، وتطور الأمة وخبراتها، كل هذه حيوية لفهم التطورات الأولى للكتابة التاريخية.

ومع أن علم التاريخ عند العرب ظهر في صدر الإسلام، إلا أن الاستمرار الثقافي يوجب الالتفات إلى تراث ما قبل الإسلام.

لقد كان في الجزيرة العربية في الدور الجاهلي مجتمعات بدوية وأخرى مستقرة، ومع أن المعلومات المتوافرة لدينا ضئيلة، وعلى العموم متأخرة، إلا أننا سنستعرضها بايجاز تمهيداً للبحث.

ففي جنوب الجزيرة، تشير الكتابات والنقوش إلى ظهور أربع ممالك خلال الفترة ١٢٠٠ق. م. و ٥٢٧م. وقد سارت هذه الممالك في تطورها في اتجاهات مثماثلة، فهي تبدأ بثيوقراطية يحكمها أمير كاهن أو «مكرِّب» يمارس السلطتين الدينية والزمنية، ثم تتدرج إلى ملكية دنيوية تسود فيها بعض الأسر من المحاربين والملاكين[١]. وقد خلفت هذه الممالك -حسب معلوماتنا الآن-

(١) *J. Ryckmans, L'institution monarchique a l'Arabie Meriondale, p. 25 off.*

كتابات تتراوح تواريخها بين القرن الثامن قبل الميلاد والقرن السابع الميلادي، وتسجل تلك الكتابات مختلف الفعاليات، مثل أعمال البر والتقوى، وتقديم الجزية، ومشاريع الري، وإنشاء الأسوار والتحصينات، والحملات العسكرية[١]. ومع أن بعض هذه الكتابات دينية في طبيعتها، إلا أن البعض الآخر هو في الأساس تسجيل للفعاليات البشرية وتخليد للأعمال الهامة[٢]. ونجد فيها في البدء طريقة مشوشة لتأريخ الحوادث، إلا أن تقويماً ثابتاً ادخل فيما بعد يبدأ بسنة ١١٥ق . م . ، مما أدى إلى نظام ثابت للتأريخ[٣]. وهذا التطور مع تسجيل الأعمال البشرية قد يوحي بوجود شيء من الفكرة التاريخية. وبالإضافة إلى ذلك فإن الهمداني يشير إلى وثائق ملكية وسجلات حميرية حفظت واستفاد منها فيما بعد[٤]، والي «زبر» أو وثائق وسجلات للأنساب حفظتها بعض العوائل والبطون[٥].

---

(١) *Repertoire d'epigraphie semetique* (R.E.S.), Nos 2706, 2695, 2975, 2999, 3021, 3391, 3943.

(٢) J. RECKMANS, *opt. cit.* p. 71-2,p. 77' R.E.S. nos 3858, 3943; Corpus Inscriptionum Semeticorum (C. I. H.) No. 621' Museon XLV, 1932, p. 294-5; Sidney Smith, in B. S. O. S. 1955 p. 31.

(٣) J. RYCKMANS, *opt. cit.* p. 282.

(٤) يقول الهمداني في تعريفه بعالم يماني: إنه «وارث ما ادخرته ملوك حمير في خزائنها من مكتوب علمها»، وأنه «قرأ زبر حمير القديمة ومساندها الدهرية». الأكليل قسم من ج١ نشره Lofgren (لوفكرن) في أبسالا ١٩٥٤ ص, ٥ ويذكر أن أنساب ولد الهميسع «كانت مزبرة في خزائن حمير وكذلك أنساب ا لملوك من ولد عمرو بن همدان». الإكليل ج١٠ ص٣٠ .

(٥) يقول الهمداني عن نسب اللعويين: «وهذه نسبة اللعويين مقيدة الأصول. . أخذتها عنهم رواية عن زبور قديم بخط أحمد بن موسى.» الإكليل ١٠ ص ١١١ . ويقول في مكان آخر: إنه أخذ نسب بني لعوة: «نقلاً عنهم في أيامهم ببلدة (ريدة) وعن الزبر التي في أيديهم، وقارن ذلك بما يرويه هشام بن =

إلا أن الروايات اليمانية الموجودة في المصادر الأولى بمجموعها ذات طابع أسطوري، بل إننا نجد حوادث القرن السادس الميلادي ـ وهي قريبة نسبياً ـ مرتبكة[1] . فبدل أن تصلنا روايات متينة نجد الرواة مثل وهب بن منبه (ت ١١٤هـ/ ٧٣٢م) وعبيد بن شرية يوردون قصة خيالية شعرية لتاريخ اليمن هي مزيج من القصص الشعبي والإسرائيليات، وحاولوا بذلك تمجيد عرب اليمن بأن نسبوا إليهم أمجاداً في الحرب والصنعة واللغة والأدب وحتى في الدين ليدللوا على أنهم سبقوا عرب الشمال في أمجادهم أو أنهم لا يقلون عنهم في ذلك[2] . وقد أورد هؤلاء أخبارهم بأسلوب يشبه أسلوب قصص «أيام العرب» مع نسبة أوفى من الشعر الموضوع لتقوية تأثير القصة، وهذه ظاهرة تجلب الانتباه، ويبدو أن أسبابها تتصل بظروف العرب في صدر الإسلام . فقد كان للظروف السياسية وللعوامل الجغرافية أثرها . إذ إن العصبية والتنافس بين عرب الشمال(مضر) وعرب الجنوب (يمن) كانت مسؤولة بالدرجة الأولى عن مثل هذه الأخبار، ولعلها أدت إلى بعض التعصب عند نسابي عرب الشمال[3] . وقد تكون المسافات البعيدة سبباً أعاق علماء الشمال من زيارة

= محمد بن السائب الكلبي وغيره من النساب». الإكليل ج١٠ ص ١١٩-١٢٠ ويقول : «والمروانيون باليمن . . يعملون على ما قيده آباؤهم من نسبهم وحفظوه كابراً عن كابر . » "الإكليل" ج ١٠ ص ٣٠-٣١ .

(١) ينتقد الهمداني في مطلع (الإكليل) الروايات التاريخية عن اليمن ويقول : «فوجدت أكثر الناس يخبط خبط عشواء ويعمه في حندس طخياء . » ، ويرى في قلة التدقيق في علم الأخبار ما يساعد على هذا الارتباك . "الإكليل" ج ١٠ ص ٤ .

(٢) كتاب "التيجان في ملوك حمير واليمن" ، نشره ف. كرنكو ص ٣٥، ٨٦-٧، ١١٠، ٤٧-٨، ٥٢-٣، ٧٤، ١٦٢ .

(٣) يرى الهمداني في عصبية نساب العراق والشام عاملاً في إرباك سلسلة اليمانيين فيقول : «وكذلك =

اليمن والحصول على معلومات مباشرة عنها[1] . ثم إن هؤلاء الرواة الأولين هم أقرب إلى القصاص منهم إلى المؤرخين. وهكذا وصلتنا روايات ضئيلة القيمة خالية من الفكرة التاريخية. ومن ناحية أخرى يحتمل أن يكون لفكرة التاريخ الثابت (التقويم) لدى اليمانيين أثر في إحداث تاريخ ثابت (التاريخ الهجري) لدى المسلمين[2] .

أما في شمال الجزيرة، فقد كان لدى المناذرة «كتب» تحوي أخبار عرب الحيرة وأنسابهم وسير أمرائهم، وكانت هذه محفوظة في كنائس الحيرة، كما أنهم كانوا يعرفون الكثير من الأخبار الفارسية[3] . وقد استفاد بعض المؤرخين فيما بعد من هذه الكتب والأخبار في تآليفهم، ولكننا لا نجد ما يشير إلى أن عرب الحيرة كانت لديهم فكرة تاريخية واضحة.

وكانت لدى عرب الشمال روايات شفوية من قصص عن آلهتهم وروايات عن شؤونهم الاجتماعية ومآثرهم. ويدور جل تلك الروايات حول غزواتهم ومعاركهم (الأيام) وحول أنسابهم، وهي تتصل بالتنظيم الاجتماعي وبالآراء والمثل الاجتماعية، وفي طليعتها المروءة أو مجموعة الفضائل البدوية وفكرة النسب أو شرف الأصل وفكرة الحسب أو نبل الأعمال والمآثر؛ إذ يلزم الأفراد

=سبيل نساب العراق والشام يقصرون في أنساب كهلان ومالك بن حمير ليضاهوا بها عدة الآباء من ولدإسماعيل.» نفس المصدر.

(١) الهمداني، "الإكليل" ج ١٠ ص ٣٠ ويقول عن اخباريي الشمال: «قلّت رحلتهم إلى من قطن منهم باليمن، ولم يلقوا بنهوجهم من ذوي معرفتهم غير أعقاب من ظعن.» "الإكليل" ج ١ ص ٤.

(٢) السيوطي - "الشماريخ في علم التاريخ" نشره سيبولد ص ٩.

(٣) الطبري - "تاريخ الرسل والملوك" ج ٢ (المطبعة الحسينية، القاهرة) ص ١٢٧؛ حاجي خليفة - "كشف الظنون" (ط. إسطنبول) ج ١ ص ٣٥؛ ابن هشام - "السيرة" (ط. القاهرة) ج ص ٣٨١.

أن يعرفوا آباءهم والمآثر التي قاموا بها، كما أن «الأيام» تجد عناية خاصة في المجتمع القبلي. وهكذا كان لدى القبائل قصص وأخبار عن أعمالها، وكانت الروايات القبلية هذه تتداول شفهياً وبصورة نثرية، ولكن الشعر يلعب دوراً اساسياً في الرواية الشفهية، يتخلل القصة أو يرد في نهايتها حسب دور الشاعر إذا شارك في الحوادث أو لم يشارك. وهذا الشعر لا يسير بالقصة ولكنه يعطيها حيوية وتأثيراً. وبمرور الزمن أصبح الوثيقة التي تعزز صحة القصة. يقول ابن فارس: «الشعر ديوان العرب، وبه حفظت الأنساب وعرضت المآثر ومنه تعلمت اللغة . . .»[1] وقد نشأت قصص «الأيام» في المجالس القبلية المسائية وكانت قصص «الأيام» مجموعة روايات شفوية قبلية جماعية، وهي ملك مشترك للقبيلة، وبقيت كذلك حتى القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، حين جمعت هذه الروايات وصنفت. ولكننا يلزمنا أن نلاحظ أن فترة صدر الإسلام، بتياراتها السياسية والاجتماعية، أثرت أثرها في أدب «الأيام»، كما أن رويات «الأيام» مرتبكة من ناحية التوقيت وهي على العموم لا تخلو من عصبية وتمثل جانباً واحداً. ثم إنها ينقصها التآلف والسبك وليست فيها فكرة تاريخية. ومع ذلك فإنها تحوي بعض الحقائق التاريخية. وأهميتها الأساسية هي في أنها استمرت في صدر الإسلام وقد أثر أسلوبها على بداية علم التاريخ وخاصة في العراق.

صارت «الأيام» جزءاً من الأخبار التاريخية، كما أن ورود الشعر فيها جعلها موضع اهتمام اللغويين والنسابين والمؤرخين [مثل أبي عبيدة، وابن قتيبة،

(١) التبريزي - «شرح الحماسة» ج ١ ص ٣ ؛ «المزهر» للسيوطي ج ٢ ص ٤٧٠ .

والمدائني والأغاني وابن عبد ربه]. وقد حاول ابن الأثير أن يورد أخبار الأيام في تسلسل تاريخي. ويرى حاجي خليفة أن تكون «الأيام» فرعاً من التاريخ إذ يقول: «علم أيام العرب وهو علم يبحث فيه عن الوقائع العظيمة والأهوال الشديدة بين قبائل العرب. . . والعلم المذكور ينبغي أن يجعل فرعاً من فروع التواريخ»(٢).

إن أهمية روايات «الأيام» هي في استمرارها في صدر الإسلام وفي أسلوبها. فأسلوب قصص الأيام مباشر يفيض بالحيوية، وواقعي يختلط فيه النثر بالشعر. وهذا الأسلوب له أثره في بداية علم التاريخ عند العرب وخاصة في الأوساط القبلية.

تتسم الحياة القبلية بالمحافظة على التقاليد، وليس لديها إلا فكرة مشوشة محدودة عن الوقت. فالزمن لديها منقط بحوادث كبرى تتخذ عادة بدايات للتاريخ أو التوقيت وحين تأتي حادثةٌ مهمة يُهمل ما قبلها ويؤرخ بها. وكانت القبائل في بعض الأوقات والأماكن، مثل: الحيرة ومكة، على صلة بثقافات أخرى إلا أن اهتمامها اقتصر على شؤونها الخاصة وليس لدينا ما يشير إلى وجود مؤثرات أجنبية.

ولم تترك الفترة الجاهلية أدباً مكتوباً، فهي فترة ثقافية شفوية. ومع أن تراثها على العموم أدى إلى استمرار الاهتمام بالأيام والأنساب، وإلى بقاء أسلوب

---

(١) حاجي خليفة، «كشف» ج١ ص ٢٠٤. عن الأيام انظر W. Caskell. Islamica III pp. 1-99 ؛ احمد الشايب - «تاريخ النقائض» ؛E.I.I.p. 218-9؛ ابن الاثير (بولاق) ج ١ ص ٢٠٩، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٥٥ وبعدها.

في الرواية وهو الأسلوب القصصي شبه التاريخي، إلا أنه يخلو من أية نظرة تاريخية.

٢ - وبظهور الإسلام، بدأت نظرات جديدة. فقد جاء القرآن بنظرة جدية إلى الماضي، وأشار إلى أن ذكريات العرب الماضية محدودة وعاد إلى بدء الخليقة. وأكد القرآن على أمثلة التاريخ الغابر وعظاته، وذكر حوادث الأمم والشعوب السالفة للتأكيد على العبر الدينية والخلقية التي تنطوي عليها.

وجاء القرآن بنظرة عالمية إلى التاريخ تتمثل في توالي النبوات -وهي في الأساس رسالة واحدة بشر بها أنبياء عديدون وكان الرسول الأعظم خاتم الأنبياء والمرسلين. وكان لهذه النظرة أثرها في الالتفات إلى تاريخ الأنبياء وإلى الإسرائيليات. إلا أن هذه النظرة العالمية اقتصرت على الفترات التي سبقت ظهور الإسلام، أما بعد ذلك فإن الاهتمام انصب على تاريخ الإسلام، فالمسلمون خلفوا الأمم السابقة التي ظهرت فيها نبوات، وأعمالهم وشؤونهم تستحق عناية خاصة. وقد أكد هذه النظرة الحديث المشهور «لا تجتمع أمتي على ضلال» وهو حديث هام في تقرير الإجماع.

ثم إن القرآن نص على أن أقوال الرسول موصى بها، وأن سيرته مثلٌ للمسلمين يقتدون به، وهنا نجد دافعاً مباشراً لدراسة أقوال الرسول وأفعاله.

وقد شعر العرب في الإسلام بأنهم أصحاب رسالة جليلة، وأنهم يمرون بمرحلة هامة، كما أن الفتوحات الكبرى جعلتهم يحسون بأنهم لهم دور تاريخي خطير، وهذا كان له أثر قوي على الدراسات التاريخية.

ووضع عمر بن الخطاب تقويماً ثابتاً هو التاريخ الهجري، فأصبح عنصراً

حيوياً في نشأة الفكرة التاريخية، ومنذ ذلك الوقت أصبح توقيت الحوادث (أو تأريخها) العمود الفقري للدراسات التاريخية، وقام عمر بن الخطاب بتأسيس الديوان أو سجل المحاربين وأهليهم حسب قبائلهم، وهذا أعطى الأنساب أهمية جديدة وكان حافزاً إضافياً للاهتمام بدراسة الأنساب.

وهكذا فإننا حين نتذكر هذه الآراء والمواد التي ذكرت أعلاه- وإن استعرضنا نشأة الدراسات التاريخية- نلاحظ أن بدايات علم التاريخ عند العرب سارت في اتجاهين أساسيين: الاتجاه الإسلامي أو الاتجاه الذي ظهر عند أهل الحديث، والاتجاه القبلي أو اتجاه «الأيام». وهذان الاتجاهان يعكسان التيارين الكبيرين في مجتمع صدر الإسلام، التيار القبلي الذي يمثل استمرار التراث القبلي والتيار الإسلامي الذي يتمثل في المبادئ والفعاليات الإسلامية. وكان كل من الاتجاهين غالباً في مركز ثقافي، الاتجاه الإسلامي في المدينة، دار سنة الرسول، والاتجاه القبلي في الكوفة والبصرة المصرين الجديدين اللذين كانا مركزين فعالين للقبلية. وقد كانت المدن الثلاثة المذكورة مراكز النشاط الثقافي في صدر الإسلام. وصار لكل اتجاه مدرسة تاريخية، وحصل تأثير متبادل بين المدرستين التاريخيتين، ثم بان تفوُّق الاتجاه الإسلامي أخيراً حين غلب اتجاه أهل الحديث في الكتابة التاريخية كما سنرى فيما بعد.

٣ - كان الاهتمام بأقوال الرسول وأفعاله للاهتداء بها أو للاعتماد عليها في التشريع، وفي التنظيم الإداري وفي شؤون الحياة، ضرورة مباشرة وطبيعية لدى أهل العلم. كما أن مغازية وغزوات أصحابه كانت مصدر اهتمام واعتزاز لدى المسلمين وكانت مواضيع محببة في مجلس السمر. وكانت المشاركة في

مغازي الرسول وفعالياته الأخرى عاملاً في رفع المنزلة الاجتماعية وعنصراً في في تحديد العطاء في الديوان مما قوى الاهتمام بها. وسرعان ما صار الصحابة أنفسهم قدوة لمن بعدهم في أقوالهم وأعمالهم، فصارت هذه مشمولة بالحديث[1]. وأخيراً اتسع الاهتمام خلال القرن الأول الهجري ليشمل فعاليات الأمة بكاملها، وقد ظهرت هذه النواحي المختلفة في الدراسات التاريخية.

بدأت دراسة «مغازي» الرسول في المدينة ضمن دراسة الحديث، ومع أن المحدثين استمروا على اهتمامهم بالمغازي، إلا أن البعض منهم أخذ يُعنى بدراسة حياة الرسول بشكل يتعدى الاقتصاد على نواحي التشريع. وكان رواد دراسة «المغازي» محدثين، كما أن النظرة التي نظر بها العلماء إلى مؤلفي «المغازي» تؤيد هذا الرأي. وهذا يفسر أهمية «الإسناد» -أو سلسلة الرواة في تقدير قيمة المغازي ويعني ذلك ربط قيمة الحديث أو الرواية بمنزلة المحدثين أو الرواة في تقدير قيمة المغازي، ويعني ذلك ربط قيمة الحديث أو الرواية بمنزلة المحدثين أو الرواة. وهذا الاتجاه ولدّ في فترة مبكرة نظرة نقادة إلى الرواة، أو مصادر المعلومات، وأدخل عنصر البحث والتحري، في جمع الروايات، وكوّن أساساً متيناً للدراسة التاريخية. ومن ناحية أخرى تنوقلت الأخبار والقصص عن «المغازي» وتوسع فيها القصاص وجعلوها أدباً شعبياً، ومع أن بعض هذه الأخبار والقصص وجد طريقه إلى بعض كتب السيرة فيما بعد، إلا أن النظرة إلى الروايات وطرق نقدها بقيت في الأساس تسير على طريقة أهل الحديث.

(١) See Schacht, Origins of Muhammadan Jurisprudenc, p. 3 off.

وقد سميت الدراسات الأولى لحياة الرسول باسم «المغازي» وتعني لغوياً غزوات الرسول وحروبه، ولكنها تناولت في الحقيقة فترة الرسالة بكاملها. وقد قام بها بعض أبناء الصحابة البارزين[١]. ولنلق الآن نظرة عليهم.

نبدأ بأبان بن عثمان بن عفان (ت بين ٩٥-١٠٥هـ/ ٧١٣-٧٣٣م) فهو محدِّث له ميل إلى دراسة المغازي. ومع أن أحد تلامذته كتب مغازية إلا أنها توصف بأنها من الحديث[٢]. واذا استثنينا إشارة إليه في اليعقوبي[٣] فإننا لا نجد بين المؤرخين من نقل أو روى عنه، في حين أنه يروى عنه في كتب الحديث. ويبدو أن أبان بن عثمان يمثل مرحلة انتقال بين دراسة الحديث ودراسة المغازي.

ويبدو أن عروة بن الزبير (ت ٩٤هـ/ ٧١٢م)، وهو فقيه ومحدث مشهور، كان مؤسس دراسة المغازي، إذ كان أول من ألف كتاباً في «المغازي»[٤]. وقد وصلنا شيء من مغازيه في مقتبسات وردت عند بعض المؤرخين كالطبري وابن إسحق والواقدي وابن سيد الناس وابن كثير، وهذه المقتبسات هي أقدم ما وصلنا من تاريخ المغازي، وهي تتناول جوانب مختلفة من حياة الرسول، كبدء الوحي، وبعض الغزوات، وبعض الشؤون الخاصة بالرسول، ولم يدخل عروة في رواياته في تفاصيل القتال في المغازي. وقد كتب عروة بعض رواياته

---

(١) See J. Horovitz, Early Biographies of the prophet and their authors, Islamic culture, I p. 535-9, II p. 22-50, P. 164-182.

و قد ترجمها الدكتور حسين نصار تحت عنوان «المغازي الأول ومؤلفوها». القاهرة ١٩٤٩.

(٢) طبقات ابن سعد ج ٥ ص ١٥٦ (ليدن).

(٣) اليعقوبي - التاريخ (نشره هوتسما) ج ١ ص ٣.

(٤) حاجي خليفة - كشف ج ٢ ص ١٧٤٧؛ السخاوي - الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص ٩٩.

في حين أن بعض كتاباته التاريخية هي أجوبة مكتوبة على أسئلة وجهت إليه من البلاط الأموي[١] . وقد استعمل عروة «الإسناد» بشكل يعكس نظرة عصره . ويبدو أنه اعتمد على الأحاديث في أجوبته المكتوبة ، ولكنه قدم رواية (أو قصة) متسلسلة دون ذكر الإسناد ، وهو في رواياته عن الحوادث المهمة مثل بدء الوحي والهجرة يعطي إسناده . وقد كانت النظرة إلى الإسناد في زمنه لا تزال مرنة ولم تكن القواعد الدقيقة للإسناد قد ظهرت بعد .

وأسلوب عروة في التأليف بسيط ، بعيد عن الإنشاء ، في حين أن نظرته واقعية صريحة وخالية من المبالغات . وقد مكنته منزلته الاجتماعية من الحصول على معلومات تاريخية من مصادرها الأولية وخاصة من عائشة ومن آل الزبير أسرته ، وقد حصل على بعض الوثائق ، كما أنه أشار إلى آيات قرآنية تتصل بالحوادث[٢] . ومع أنه يورد الشعر في بعض الأحيان[٣] إلا أن هذا ليس نتيجة لأثر أسلوب الأيام بل إنه يعكس حبه للشعر ودور الشعر في الثقافة .

وامتد اهتمام عروة بالتاريخ إلى فترة الخلفاء الراشدين - فتناول مثلاً الردة ومعركتي القادسية واليرموك[٤] . وهكذا نجد الاهتمام مبكراً بأحداث الأمة .

ولكن الرويات التي وصلتنا عن عروة قليلة مبعثرة ولا تمكّننا من الحصول على فكرة واضحة عن مغازيه أو عن الهيكل الذي انتظمت فيه رواياته إن وجد .

---

(١) طبقات ابن سعد ج ٥ ص ١٣٣ ؛ الطبري (نشر دي خويه) ج ١ ص ١١٨٠ ، ١٢٨٤ ، ١٦٣٤ .

(٢) انظر البلاذري ، «فتوح البلدان» (ليدن) ص ٧٩ ؛ ابن هشام - «السيرة» ص ٧٥٤ (ن. وستنفلد) ؛ الطبري ج١ ص ١١٨٠-١ ، ١٢٨٨ .

(٣) الطبري ج ١ ص ٢٣٤٨ .

(٤) الطبري ج ١ ص ١١٨٥ ، ١١٩٩ ، ١٢٤٢ .

ولنلاحظ هنا أننا إذا أردنا ان نتفهَّم تطور الكتابة التاريخية، يلزمنا أن نلاحظ أن الدراسات حتى في المغازي كانت أعمالاً جماعية، وأن فعاليات الأفراد تكون جزءاً من مدرسة. فكان كل واحد من حملة العلم يضيف دراساته وبحوثه إلى دراسات أساتذته، وبذلك يحفظ علم المدرسة التي ينتمي إليها ويضيف ما وصل إليه.

ومن معاصري عروة شراحبيل بن سعد (ت ١٢٣هـ/ ٧٤٠م). وهو بدوره يعكس تطور النظرة الاجتماعية حين يقدم قوائم بأسماء الصحابة الذين شاركوا في الأحداث الكبرى مثل البدريين والذين اشتركوا في معركة أحد وجماعة المهاجرين إلى الحبشة والمهاجرين إلى المدينة، لما للمشاركة فيها من قيمة اجتماعية متزايدة.

وفي الجيل التالي قام ثلاثة من العلماء بتنمية وتوسيع دراسة «المغازي» وهم: عبدالله بن أبي بكر بن حزم (ت ١٣٠-١٣٥هـ/ ٧٤٧-٧٥٢م): وعاصم بن عمر بن قتادة (ت١٢٠هـ/ ٧٣٧م)، ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهري. وليس أمامنا إلا مقتطفات من مؤلفاتهم التي حددت إطار «المغازي»، وهيأت جل المواد التي اعتمد عليها ابن إسحق والواقدي بعده.

والزهري (ت١٢٤هـ-٧٤١م)[١] هو المؤرخ الأول بين الثلاثة المذكورين، إذ أنه لم يقتصر على رواية «مغازي» عروة بن الزبير[٢] بل قام ببحث واسع عن روايات المدينة وأحاديثها وكتب ما كان يسمع ليعين ذاكرته، وقد محص تلك

(١) لقدكتبت بحثاً خاصاً عن الزهري، ولذا حذفت ذكر المراجع هنا، ويمكن الرجوع إليه في فصل تال.

(٢) السخاوي. «الإعلان بالتوبيخ» ص٨٩.

الروايات ووضعها في إطار متين واضح. ودراسة رواياته التي وصلتنا تجعلنا نميل إلى أنه كان أول من أعطى «السيرة» -وهو التعبير الذي استعمله- هيكلاً محدوداً ورسم خطوطها بوضوح. وتبدأ خطته للسيرة بذكر بعض المعلومات عما قبل الإسلام والتي تتصل بحياة النبي محمد ﷺ. ثم يتناول النواحي الهامة من الفترة المكية من حياة الرسول، ثم الهجرة إلى المدينة، ويتناول المغازي وفتح مكة، وبعض السفارات التي أرسلها الرسول والوفود التي قدمت عليه، ويتحدث عن فعاليات أخرى للرسول ثم مرضه وانتقاله من هذه الحياة. وراعى الزهري التسلسل التاريخي في حوادث السيرة وأعطى تواريخ الحوادث المهمة.

وقد أخذ الزهري جل مواده عن السيرة من الحديث، ولا نجد إلا أثراً بسيطاً للقصص فيما كتب، كما أننا نجد صدى ضعيفاً في مادته لقصص الأنبياء التي اهتم بها كما يبدو. ومع أن الزهري كان يحب الشعر مثل أبناء عصره، بل إنه كان ضليعاً في الشعر، إلا أن استعماله له محدود في مغازيه، فهو بعيد عن أسلوب الأيام في كتابته.

وتناولت دراسات الزهري فترة الخلفاء الراشدين، إذ تناول بإمعان الحوادث الهامة والمشاكل الرئيسية في تاريخ الأمة مثل انتخاب أبي بكر -رضي الله عنه- وتأسيس الديوان وجمع القرآن والشورى والفتنة ومقتل عثمان وانتخاب علي -رضي الله عنه- والحرب الأهلية الأولى وانتقال السلطة إلى الأمويين، وهو ذلك يظهر أهمية التجارب التي مرت بها الأمة.

ومن ناحية أخرى كان الزهري عالماً بالأنساب، إذ ألف كتاباً في نسب قريش كما أن مصعباً الزبيري يذكره مصدراً في كتابه المعروف بـ «نسب قريش».

وقد أسند الزهري رواياته واشتهر بقوة إسناده، ونظرته في ذلك تمثل نظرة عصره حيث نجده يعتبر رواية التابعين أحياناً وافية بشروط الإسناد، ولكنه أدخل شيئاً جديداً وهو الإسناد الجمعي، حيث يدمج عدة روايات في خبر متسلسل وبذلك يسير خطوة مهمة نحو الكتابة التاريخية المتصلة .

وقام الزهري بخدمة أخرى هامة للدراسة التاريخية إذ أنه كتب رواياته، ويعتبر الزهري أول من فعل ذلك بصورة منظمة. وقد وجدت أحمال عديدة من مؤلفاته في خزانة الكتب في البلاط الأموي. أما الروايات التي تذكر أنه أجبر على الكتابة فهي صدى لمناقشات حصلت بعد عصر الزهري[1] .

إن دراسات عروة بن الزبير والزهري تلقي ضوءاً على بدايات الكتابة التاريخية ونطاقها، ومنها يظهر أنه بالإضافة إلى السيرة كانت أهمية التجارب وخبراتها عاملاً أساسياً في نشأة الكتابة التاريخية، ثم إن التفسير مع كثرة الإشارات القرآنية إلى شؤون المسلمين كان عاملاً آخر، وكانت الحاجات الإدارية -كتنظيم الضرائب والديوان من دوافع الكتابة[2] . ثم إن المنزلة الاجتماعية والاحترام اللذين يتمتع بهما العلماء في المجتمع كانا من الدوافع لطلب العلم كما أكد عروة بن الزبير والزهري[3] .

ونلاحظ أن رواياتهم تتصف بصراحتها وبطابعها الإنساني، ويندر فيها ما

---

(١) الذهبي - تراجم، نشره فيشر ص ٦٧، ٧٢، ٦٩؛ ابن كثير - «البداية» ج ٩ ص ٣٤٤؛ ابن الجوزي - «صفوة» ج٢ ص ٧٨ .

(٢) تاريخ البخاري ج ٤ ص ٣٢ ؛ الذهبي - تراجم نشره فيشر ص ٤٥ .

(٣) انظر البلاذري - «فتوح البلدان» (ن. دي خويه) ص ١٩-٢٠ ، ٦١، ٣٨٤ .

نشاهده لدى المؤرخين فيما بعد من مبالغة، كما أن الاتجاه نحو الجبرية في تفسير الحوادث- وهو اتجاه شجعه الأمويون- لا يبدو واضحاً لديهما، بل إننا نجد أن أعمال الرسول ذاتها تُعرض أحياناً على أنها موحى بها وتُعتبر في بعض الحالات مجرد تدابير بشرية عملية كما في قصة الخندق.

ثم إن دراساتهما تدل على أن خطوط السيرة وضعت في القرن الأول الهجري، ولم يكن واضعوها من القصاص مثل وهب بن منبه بل كانوا محدِّثين على قدر محمود من المقدرة على نقد الروايات وتحريها. أما القصاص الذين طوروا القصص الشعبي وأخذوا من الإسرائيليات في قصصهم فإن أثرهم يظهر بعد جيل الزهري.

ومن المناسب هنا أن نعرض لوهب بن منبه (ت ١١٠هـ/ ٧٢٨م) لأثره في ناحيتي القصص والإسرائيليات، فوهب يماني المولد والثقافة، وقد جاء بوجهة غريبة عن مدرسة المدينة.

ألف وهب في «المغازي»[١]، وقد وجد الأستاذ بيكر قطعة من مغازيه ولكنها لا تعطي فكرة واضحة عن هيكله للسيرة أو عن نظرته للإسناد. وقد أورد صاحب حلية الأولياء قطعتين في السيرة عن وهب[٢]، جاءا دون إسناد وأسلوبهما نموذج من أسلوب القصاص - فيه تصوير حاذق، وفيه التمجيد وفيه المادة الأسطورية. كما أن أسلوب الأيام واضح في القطعة التي وجدها بيكر، ولكن مغازي وهب لا يشار إليها في تواريخ السيرة ولا أثر لها في أدب المغازي.

(١) حاجي خليفة - «كشف» ج ٢ ص ١٧٤٧.

(٢) أبو نعيم الإصفهاني - «حلية الأولياء» ج٢ ص ٧٣ وبعدها وص ٧٩ وبعدها.

لقد اعتنى وهب بالإسرائيليات، وهي قصص وأساطير عن العهد القديم، وأراد بها توضيح بعض الإشارات القرآنية، وهو بهذا استطاع أن يدخل عنصر القصص إلى الدراسات الإسلامية، وقد جمع وهب من هذه القصص ما كان متداولاً بين المسلمين، وخاصة قصص كعب الأحبار (ت ٣٢-٣٤هـ/ ٦٥٢-٦٥٤م) وعبدالله بن سلام (ت حوالي سنة ٤٠هـ/ ٦٦٠م)[١]. وقد أضاف إليها ما حصل عليه من القصص نتيجة اتصالاته بأهل الكتاب ومن قراءته للكتب المقدسة. وكان كتابه (المبتدأ) أول محاولة لكتابة تاريخ للرسالات. وتدل دراسة المقتبسات في ابن قتيبة (المعارف) والطبري والمقدسي (البدء والتاريخ) علي أن وهب بدأ بالخليقة وتدرج إلى تاريخ العهد القديم ثم إلى الأنبياء الذين ذكرهم القرآن مثل: هود وصالح، بل وحتى إلى بعض الصالحين مثل: لقمان وأهل الكهف.

أما روايات وهب عن تاريخ اليمن فهي أسطورية تأخذ من قصص الإسرائيليات والقصص الشعبي، مع كثير من الشعر الموضوع، وتتمشى مع أسلوب قصص الأيام، وقد قدَّم وهب ملحمة نثرية يمانية شعبية لتجابه تفوق عرب الشمال.

ولم يكن وهب دقيقاً، بل إنه لم يترفع عن الادعاء الكاذب؛ ولذا فإنه يعتبر إخبارياً قاصاً، ويعتبر السخاوي أخباره غير جديرة بالمؤرخين الجديين[٢]. وقد جاء باتجاه منحرف ضعيف بالنسبة لوجهة المحدثين في المدينة، ولكنه جعل من الإسرائيليات مادة لتاريخ قبل الإسلام وقدم أول نموذج للتاريخ العالمي متمثلاً

(١) الذهبي في ZDMG ١٨٩٠ ص ٤٣٩، السخاوي - الإعلان ص ٤٩.

(٢) المصدر السابق، وابن خلكان (ط. القاهرة) ج ٢ ص ٢٣٨.

في تاريخ الرسالات، وهذا الاتجاه وجد صدى قوياً عند مؤرخ مشهور من مؤرخي المدينة وهو ابن إسحق.

ولنرجع الآن إلى مدرسة التاريخ المدنية التي ركزها الزهري لننظر في مؤرخين لهما أهمية خاصة وكلاهما من تلاميذ الزهري وهما: موسى بن عقبة، ومحمد بن إسحق.

أما موسى بن عقبة (ت ١٤١هـ/ ٧٥٨م) فقد اتبع بدقة أسلوب مدرسة المدينة. فنجده يعكس تزايد تأكيد المحدثين على الإسناد، ويبدي اهتماماً خاصاً بذكر تواريخ الحوادث، وقد استفاد من مواد مكتوبة (وخاصة من آثار أستاذه الزهري) بالإضافة إلى الوثائق والروايات الشفوية، ولكن الاعتماد في الروايات المكتوبة بقي على الراوي لا الكتاب. وقد استند موسى بن عقبة بالدرجة الأولى إلى الزهري وأضاف إلى ذلك بحوثه الخاصة، وبذلك أضاف مادة إلى تراث المدرسة، ولكننا نبين أن تقدير إنتاجه يتطلب دراسة تفصيلية دقيقة لكل المقتبسات المأخوذة عنه والتي ترد في ابن إسحق والواقدي والطبري وابن سيد الناس وابن كثير.

وحين نأتي إلى ابن إسحق نحس بخطوط جديدة في التطور، نحس بأننا انتقلنا إلى علماء هم مؤرخون أولاً ثم محدثون من الدرجة الثانية.

وقد وصلتنا من ابن إسحق (ت١٥١هـ/ ٧٦١م) أقدم سيرة تكاد تكون محفوظة بكليتها، ويحتمل أن خطته الأصلية للسيرة كانت تتألف من ثلاثة أقسام - المبتدأ أو تاريخ الفترة بين التكوين ومبعث الرسول، و«المبعث» أو

رسالة النبي محمد ﷺ، و «المغازي» أو غزوات الرسول وسراياه. ولكني أرى أن الكتاب نفسه يتألف من قسمين متميزين: المبتدأ والمغازي، ولذا كان جائزاً روايتهما معاً أو كلاً على انفراد[1].

ذهب ابن إسحق أبعد من حدود مدرسة المدينة سواء أكان ذلك في نظرته التاريخية أم في أسلوبه. فقد جمع بين أساليب المحدثين والقصاص في كتاباته، واستفاد من مختلف نواحي الاهتمام بالمغازي وتواريخ الأنبياء - فجمع بين الأحاديث والروايات التاريخية الإسرائيليات والقصص الشعبي مع كثير من الشعر الصحيح والموضوع؛ ولذا فإن مصادر معلوماته تكون خليطاً يجلب الانتباه. ففي المبتدأ روى ابن إسحق عن «أهل الكتاب»، وعن الداخلين حديثاً في الإسلام، وأخذ كثيراً عن وهب بن منبه[2]، وعن العجم، وروى قصصاً عربية قديمة، وأقاصيص من أصل يماني[3]. أما رواياته عن فترة الرسالة فترجع في جوهرها إلى أساتذته في المدينة[4]، مع إضافات حصل عليها ببحوثه، وفي بعض الحالات لا تتعدى رواياته أن تكون شرحاً لآيات قرآنية نقله عن غيره أو عمله هو. ولكننا نلاحظ أن معلوماته عن الفترة المكية وردت في الغالب دون

---

(١) انظر السخاوي - الإعلان ص ٨٨, ويقول السخاوي في ص ٩٢: «وأما قصص الأنبياء ففي المبتدأ لمحمد بن إسحق بن يسار المطلبي صاحب السيرة النبوية». وانظر المقدسي - البدء والتاريخ ج٢ ص ٣٨؛ الخطيب البغدادي - تاريخ بغداد ج١ ص ٢١٥. وانظرابن العماد - شذرات الذهب ج١ ص ٢٣٠, وانظر ايضاً الذهبي في ZDMG سنة ١٨٩٠ ص ٤١٩.

(٢) الطبري - تاريخ ج ١ ص ٣٦١، ٤٧١، ٥٠٤، ٥٣٩، ٥٥١ وبعدها، ص ٥٦٢؛ الهمداني، إكليل ج١ ص ١٠، الطبري - تفسير ج ١٦ ص ١٢، ٥١ ج ١٧ ص ٤٥.

(٢) ابن هشام - (القاهرة) ج ١ ص ٧٥، ٨١-٩٥ وكذا ص ٢٧، ٢٩ وطبعة وستنفلد ص ١٩٧.

(٤) خاصة عروة والزهري وعاصم بن عمرو بن قتادة وعبدالله بن أبي بكر بن محمد بن حزم.

إسناد، وكثيراً ما نجد كلمة «قصة»[١] عنواناً لأخباره مما يشير إلى أثر القصص. ومع أن رواياته عن الفترة المدنية فيها طابع جدي أقوى وعناية أوضح بالإسناد، إلا أننا نجد مع هذا أثر القصص الشعبي كما نجد أثر التقوى في المبالغة، ويرد الشعر خلال أخباره أو في نهاية الكلام عن الحادث بشكل مجموع وهذا يظهر بوضوح جمعه بين أسلوب القصاص وأسلوب المحدثين. وهذا الشعر، بنوعيه الموضوع والصحيح، يلقي ضوءاً على التيارات السياسية المعاصرة كالمنافسة بين الأنصار وقريش[٢].

وينتقد ابن إسحق لاعتماده على أهل الكتاب في الرواية، ولإيراده كثيراً من الشعر الموضوع، ولأخطائه في الأنساب، ولأنه لا يمحص مصادره، ولأنه ينقل من كتب الآخرين مباشرة (أي دون سماعها عن أصحابها)[٣]. ومع ذلك فإن ابن إسحق يبدي شكاً ببعض رواياته[٤] ويستعين أحياناً بالآيات القرآنية ليعزز رواياته. أما في الشعر فلم يكن متيناً، ويعترف بضعفه. أما في الإسناد فلم يكن دقيقاً كما يتطلب أهل الحديث، ولكنه تقدم بطريقة الإسناد الجمعي بكفاءة واستطاع أن يقدم قصة جذابة من رواياته. وقد استفاد ابن إسحق من الوثائق والمواد المكتوبة والروايات والأخبار الشفوية.

---

(١) انظر ابن هشام (القاهرة) ج ١ ص ٢٠٣، ٢٢٤.

(٢) انظر رسالة الدكتور وليد عرفات وعنوانها:

"A critical introduction to the study of the poetry ascribed to Hassan b. Thabit"

(٣) ابن سيد الناس - عيون الأثر ص ١٢؛ ياقوت - معجم الأدباء (ن. مرجليوت) ج ٦ ص ٤٠٠.

(٤) ابن هشام (القاهرة) ج ١ ص ١٨٦، ١٩٤، ٢٠٣-٢٠٤.

ويظهر أثر التيارات السياسية - الفكرية في التهمة الموجهة إلى ابن إسحق في أنه ذو ميول شيعية، وهي تهمة لا تخلو من أساس[1] . ويوصف بأنه قدري -يؤمن بحرية الإرادة- وربما كان ضد الأمويين، ولكن هذا يتطلب الأدلة لإثباته.

وقد انتقدت سيرة ابن إسحق في المدينة، ولكنها لقيت عناية في المشرق، ويبدو أنها بأسلوبها ومادتها ناسبت الاتجاهات الثقافية هناك، وقد وصلتنا منقحة من قبل ابن هشام (ت ٢١٨هـ / ٨١٣م) الذي أخذها برواية البكائي وهي بنظر السخاوي أوثق من رواية يونس بن بكر الشيباني[2] . وقد حاول ابن هشام في تهذيبه أن يحذف الأقسام الضعيفة خاصة في المبتدأ، وأن يطرح الشعر الموضوع وأن يجعلها أقرب إلى وجهة نظر المحدثين. ويظهر أن عامة المؤرخين ينظرون إلى سيرة ابن إسحق -خاصة بعد أن نقحها ابن هشام- نظرة حسنة[3].

وينسب إلى ابن إسحق كتاب آخر وهو «تاريخ الخلفاء» ولم يصلنا منه إلا مقتطفات مبعثرة، ويبدو أنه تناول تاريخ الخلفاء الراشدين والأمويين.

لقد استفاد ابن إسحق من وجهات أسلافه وأضاف اليها. فهو في «المبتدأ»

---

(١) انظر ياقوت - معجم الأدباء ج٦ ص ٤٠٠؛ ابن هشام (القاهرة) ج١ ص١٠٦، ج ٣ ص ٢٣٤ - ٥ وطبعة وستنفلد ص ١٥٢-١٥٤، ٤٣٥ .

(٢) السخاوي - الإعلان ص ٨٨ .

(٣) الذهبي - تذكرة الحفاظ ج١ ص ١٦٣-١٦٤؛ ابن كثير - البداية ج١٠ ص ١٠٩؛ ابن العماد - شذرات ج١ ص ٢٢٥، ٢٣٠؛ ابن خلكان (ن. وستنفلد) ج ٢ ص ٧-٨؛ السخاوي ص ١١٧ .

يبدو متأثراً في خطته بوهب بن منبه وربما كان هذا سبب وجود قسم خاص باليمن فيه. ومع أن تآليفه منفصلة عن بعضها إلا أنها بمجموعها تعبر عن فكرة تاريخية وهي كتابة تاريخ عالمي (من المبتدأ والمغازي وتاريخ الخلفاء).

وتطورت الدراسات التاريخية لدى محمد بن عمر الواقدي (١٣٠-٢٠٧هـ / ٧٤٨-٨٢٣م). فكتابه «المغازي» أو غزوات الرسول وسراياه يقتصر على الفترة المدنية ويتمشى بدقة أكثر من ابن إسحق مع مدرسة المدينة في المادة والأسلوب. فهو منتظم ومنطقي في تناول مادته، إذ يعرض أولاً إطار الموضوع ثم يعقبه بذكر التفاصيل، ويبدأ بقائمة لمصادره الأساسية وبقائمة بمغازي الرسول وتواريخها، وحين يذكر الغزوات التي قادها الرسول يورد أسماء أمراء المدينة في غيابه، ثم يتناول تواريخ الغزوات واحدة بعد الأخرى حسب تسلسلها التاريخي ويبدي اهتماماً خاصاً بالتواريخ.

وهو في أسلوبه أكثر دقة من ابن إسحق، في استعمال الإسناد، وفي تحقيق تواريخ الحوادث، وفي نظرته للشعر إذ يقتبس منه باعتدال، وفي تقليصه لعنصر القصص الشعبي في مادته. وقد استعمل طريقة الإسناد الجمعي بانتظام تقريباً ليعطي المواد الأساسية عن كل غزوة ثم يورد بعد ذلك روايات فردية ليعطي تفاصيل أخرى أو روايات مباينة، وهذا الأسلوب يدلُّ بوضوح على أن الواقدي يعطي بإسناده الجمعي روايات مدرسة المدينة ثم يضيف إليها ما وصل إليه. ويظهر أثر بحوثه الشخصية في المادة الإضافية التي يقدمها، وفي ضبط التواريخ، وفي تقديم إطار أوضح للغزوات، وفي اهتمامه بالتفاصيل ا لجغرافية التي تتصل بمواقع المعارك.

وتبدو نظرته النقدية في زيارته لمواقع المعارك ليكمل بذلك مادته، وفي

تمحيصه للمواد التي وصلته[1] وفي بحثه عن وثائق جديدة، وفي إعداد قوائم أوفى للمشاركين في الغزوات حتى جاء منها بمجموعة طيبة. ويكثر الواقدي من الإشارة إلى الآيات القرآنية التي تتصل بالحوادث، وفي الحالات المهمة يذكر الآيات ملحقة برواياته كما في حديثه عن بدر وأحد والخندق وبذلك يجعل قصته التاريخية سهلة التسلسل. والواقدي صريح في رواياته، ومع وجود ميول علوية لديه إلا أنه بعيد عن التحزب[2]. ولكننا نحس بأثر القصص في مغازية.

ولا يأخذ الواقدي شيئاً عن ابن إسحق، وهذا يرجع إلى نظرة المدينة إلى ابن إسحق، وإلى اختلاف وجهة الواقدي عن ابن إسحق وإلى النظرة السائدة في المدينة وهي أن الأحاديث التاريخية هي ملك مدرسة المدينة فهي تحت تصرف الاثنين.

وقام الواقدي بدراسة التاريخ الإسلامي، فكتب كتباً عن مواضيع مهمة مثل «الردة» ويوم «الدار» أو مقتل عثمان، و «صفين» و «الجمل» وفتوح الشام والعراق. ويهمنا بصورة خاصة كتابه «التاريخ الكبير» الذي يتناول كما يبدو تاريخ الخلفاء حتى سنة ١٧٩هـ/ ٧٩٥م على الأقل. ثم إن مؤلفه «كتاب الطبقات» أو تاريخ طبقات المحدثين في الكوفة والبصرة مهم لأنه يظهر أثر دراسة الحديث في كتابة التاريخ لأنه يساعد المحدثين في تحقيق الأسانيد، ولعله كان المثال والأساس الذي اعتمده ابن سعد كاتب الواقدي في طبقاته.

---

(١) ابن سيد الناس ج ١ ص ١٧ و ١٨.

(٢) انظر النص الكامل لمغازي الواقدي، حققه جي. إم. جونز ولا يزال مخطوطاً [في مكتبة مدرسة اللغات الشرقية - جامعة لندن].

لقد وضعت التواريخ المذكورة وفق منهج أهل الحديث في التاريخ الإسلامي، واتسعت في نطاقها حتى وصلت مرحلة التقت فيها من ناحية الموضوع بمؤلفات الإخباريين واللغويين. وجاء ابن سعد (ت ٢٣٠هـ/ ٨٤٤م) فألف «كتاب الطبقات الكبرى»، وهو في القسم الأول منه «أخبار النبي» يضع الخطوط الأخيرة لهيكل السيرة؛ إذ ذهب أبعد من الواقدي في تنظيم مادته وتبويبها، وفي إعطاء مجموعة أوفى من الوثائق، وفي اهتمامه بصورة أقوى بسفارات النبي، كما أن القسم الذي يتناول فترة قبل الإسلام عبارة عن مقدمة لفترة الرسالة، إذ يتحدث عن بعض الأنبياء الذين لهم صلة برسالة النبي محمد ﷺ ثم ذكر نسبه. وقد توسع ابن سعد في الحديث عن شمائله وفضائله وعن دلائل نبوته وجعل ذلك باباً خاصاً أصبح نموذجاً لأدب «الشمائل» و «الدلائل» فيما بعد [1]. وهكذا نجد هيكل تاريخ السيرة يثبت نهائياً، ونرى تواريخ السيرة التالية تتبع نفس الخطة وتعتمد بالدرجة الأولى على المواد التي قدمتها المؤلفات المذكورة.

وخلال القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي، انتشرت دراسات السيرة إلى بلدان أخرى خارج المدينة -في اليمن والعراق والشام- وقد بقيت منها آثار قليلة، ولكنها تدل على تزايد الاهتمام بهذا الحقل من الدراسات التاريخية.

من هذا العرض الموجز نرى أن العناية بدراسة الحديث أدت إلى الدراسات التاريخية -وهو اهتمام بمعرفة «العلم» بالمقابلة للرأي في تثبيت حقيقة أو قضية. ولما توسع الحديث ليشمل فعاليات وأقوال الصحابة والتابعين، ولما كانت

(١) انظر مادة «تاريخ» في دائرة المعارف الإسلامية (الملحق).

تجارب الأمة (والإجماع خاصة) مصدراً في التشريع، توسعت الدراسات التاريخية لتشملها. ثم إن القضايا السياسية وخاصة مسألة الخلافة تطلبت البحث في ناحية تاريخية وموضوعية، كما أن الدوافع الأخرى، إدارية واجتماعية، كان لها أثرها.

وقد ظهرت نظرات تاريخية مع المبادئ الإسلامية - تتمثل في دراسة السيرة، وفي كتابة تاريخ عالمي متمثلاً في توالي الرسالات، وفي دراسة تاريخ الأمة، وتتخلل هذه النظرات فكرة أساسية وهي أن المشيئة الإلهية كوَّنت العالم وهي التي تسيِّره، ولكن فكرة القدر أو حرية الإرادة موجودة أيضاً، كما أن خبرات الأمة مهمة جداً. ونلاحظ أن الغالب على أخبار السيرة أنها بسيطة وواقعية وصريحة، ولكن مرور الزمن ومثل أهل الكتاب وفعاليات القصاص -مدفوعة بعوامل اجتماعية أو بالتقوى- أدت بمرور الزمن إلى شيء من التفخيم والمبالغة.

٤ - وتطور الاتجاه الثاني للكتابة التاريخية من استمرار الاهتمام بالمآثر والأنساب القبلية. وقد أضافت الفتوحات مآثر وأمجاداً جديدة إلى الموضوعات القبلية، كما أن إنشاء إمبراطورية إسلامية فتح آفاقاً جديدة، وسرعان ما ظهرت عصبية محلية للأمصار والاعتزاز بها لدى القبائل التي تسكنها. ثم إن التطورات السياسية العامة ساعدت في البدء على تقوية الخطوط القبلية وعلى زيادة الاهتمام بها، يضاف إلى ذلك أن المعلومات المتعلقة بالفتوحات كانت مهمة بالنسبة لإسكان القبائل في الأمصار وبالنسبة للأغراض الإدارية العامة.

وشجع الأمويون مثل هذه الدراسات، فكانت ضرورة للثقافة الحسنة في الفترة الأموية[1].

وقد شهد القرن الثاني الهجري الإخباريين واللغويين والنسابين يعملون بنشاط كلاً في حقله. ويمثل الأخباريون خط الدراسات التاريخية [الخبر يعني الرواية أو القصة]، في حين أن الآخرين قاموا بدور في الدراسات التاريخية، ومع ذلك فإن كتاباتهم- وخاصة في الفترة الأولى- تدلُّ على أن نواحي اهتمامهم ومؤلفاتهم كانت متداحلة أحياناً.

وتركزت فعالياتهم خلال القرنين الأولين للهجرة في الكوفة والبصرة، وهما مركزان نشيطان للقبائل العربية، وهذا أعطى الروايات العراقية منزلة غالبة في هذا الاتجاه من الكتابة التاريخية.

وكانت القصص والأخبار تروى في مجالس السمر القبلية، أو في مجالس سمر الأمير، أو في المسجد وهي تدور حول الأمجاد القبلية، وينظر إليها عادة كملك مشترك للعوائل أو القبائل. وظهر رواة يروون أخباراً متفرقة أو شعراً، ونحن إن جهلنا رواة الشعر فإننا نعرف الكثير عن رواة الأخبار. وفي مطلع القرن الثاني للهجرة نلاحظ الاتجاه لجمع هذه الأخبار وروايتها بشكل متصل منظم حول موضوع أوحادث في إطار كتاب، فكان الإخباريون المؤرخين الأولين في الاتجاه القبلي. ورجع الإخباريون في جمعهم للمواد التاريخية إلى الروايات العائلية والروايات القبلية وإلى الروايات التي تتداول في المصر. وأتمت هذه الروايات، وخاصة بالنسبة لخلافة الراشدين، بروايات من المدينة.

(١) الفهرست لابن النديم، نشره فلوجل ص ٨٩؛ صلاح الدين المنجد - طرفة الأصحاب ص ٦-٨.

وكانت هناك سجلات حكومية (خاصة ديوان الحاكم) في العراق والشام، وكذلك دواوين الجند وفيها تسجل القبائل، ويحتمل أن الإخباريين رجعوا إليها. ولم يكن باستطاعة الإخباريين تجاهل الإسناد، مما يؤكد أثر الإطار الإسلامي. ومع أنهم استعملوا الإسناد بحرية وببعض التساهل إلا أن ازدياد أهميته بالتدريج لدى الإخباريين يظهر اطراد أثر الاتجاه الإسلامي في التاريخ. وكان جمع الأخبار جزءاً من ظاهرة ثقافية عامة، وهي ظاهرة جمع الأحاديث والروايات في كل مصر على انفراد.

ولم تصلنا مؤلفات الإخباريين الأولين؛ ولذا فإن تقديرنا لعملهم مقيد بالمقتطفات التي وصلتنا عن طريق المؤرخين فيما بعد مثل: الطبري والبلاذري. ولننظر الآن إلى بعض هؤلاء الإخباريين.

لنبدأ بأبي مخنف (ت ١٥٧هـ / ٧٧٤م) وهو إخباريٌّ كوفيٌّ له اهتمامٌ بالأنساب[١]. وقد كتب عن الردة، وعن فتوح الشام والعراق، والشورى، وصفين، وعن الحوادث التالية في العراق حتى نهاية العصر الأموي وخاصة الثورات والمعارك وعن الخوارج ووضع ذلك في كتب تجاوزت الثلاثين. ويعتبر أبو مخنف من أميز الإخباريين في العراق[٢].

استعمل أبو مخنف الإسناد بشيء من التسامح[٣]. واستعمل الروايات

(١) كان جده من أتباع الإمام علي المخلصين واستشهد في صفين. انظر الطبري ج١ ص ٢٣٠٢ - ٢.

(٢) الفهرست (ن. فلوجل) ص ٩٣؛ ياقوت - معجم الأدباء ج٦ ص ٢٢٠ - ١؛ فوات الوفيات ج ٢ ص ١٣٥؛ ابن قتيبة - المعارف (ن. وستنفلد) ص ١٩٤.

(٣) يعتبره المحدثون ضعيف الإسناد. ابن قتيبة ص ١٤٤، فوات الوفيات ج٢ ص ١٣٥.

العائلية خاصة عن صفين[١] ، واعتمد بكثرة على روايات قبيلته الأزد[٢] . كما أنه استفاد من الروايات الكوفية الأخرى -فمثلاً يأخذ عن الشعبي، وعن رواة من قبائل أخرى كتميم وهمدان وطي وكنده. ثم إنه أتمها بروايات من المدينة[٣]. ونلاحظ أن سلاسل رواياته كثيرة وتتبدل بتبدل الحوادث وهذا طبيعي في إخباري من الأولين.

ويورد أبو مخنف عادة الصورة العراقية (الكوفية) للحوادث، فهو أميل للعراق تجاه الشام نتيجة اعتزاز القبائل بمصرها، كما أنه أميل للعلويين تجاه الأمويين، كما أن اعتزاز القبائل بمآثرها ينعكس أحياناً في رواياته[٤] . ولكن أخباره على العموم ليست متحزبة.

ونرى في كتابة أبي مخنف تسلسلاً متصلاً، ولكن التماسك ضعيف في بعض ا لأحيان، وهي تقدم أحياناً صورة أخاذة حية للحوادث مع كثير من الخطب والمحاورات، ويتخللها الشعر في بعض المناسبات[٥] . وهكذا نجده يعكس أثر مجالس السمر وشيئاً من وجهة قصص «الأيام» في أساوبه.

أما عوانة بن الحكم (ت ١٤٧هـ/ ٧٦٤م) فهو إخباري كوفي متضلع في الشعر والأنساب[٦] . وقد كتب «سيرة معاوية وبني أمية» ويرجح أنه تاريخ

---

(١) الطبري ج ١ ص ٣٢٦٦؛ ٣٢٠٢-٣، ٣٣٨٣، ج ٢ ص ١٢٢ .

(٢) انظر الطبري ج١ ص ٣٢٧٦-٧، ٣٢٨٣، ٣٢٨٨، ٣٣٤٩، ٣٣٩٦، ٣٤٣٠، ٣٤٣٨، ج٢ ص١١١ .

(٣) انظر البلاذري - أنساب ج ٥ ص ٣١ ؛ الطبري ج ١ ص ٣٤٠٣ .

(٤) الطبري ج ١ ص ٣٣٢٣ - ٥ ، ٣٢٠٢-٣، ٣٢٧٠؛ أنساب ج ٥ ص ١٩-٢٠ .

(٥) الطبري ج ١ ص ٣٢٩٦-٨، ٣٣٠٣-٤ ؛ انساب ج ٥ ص ٣٤-٥ ، ٣٠٠-٣٠١ .

(٦) ياقوت - معجم الأدباء ج ٦ ص ٩٤ ؛ الفهرست ص ١٣٤ .

للأمويين يتناول الخلفاء الأمويين على التوالي[١] . وتناول مؤلفه الآخر «كتاب التاريخ» التاريخ الإسلامي في القرن الأول الهجري، وتدلنا المقتبسات المأخوذة عنه أنه كتب عن الخلفاء الراشدين والردة والفتوحات -وهو ثقة فيها بصورة خاصة- والصراع بين الإمام علي وخصومه، وتنازل الحسن، وشؤون العراق والشام حتى نهاية فترة عبدالملك بن مروان.

وتدل رواياته على معرفة داخلية بشؤون الأمويين[٢] . ولعله أخذ معلوماته هذه من قبيلة كلب الموالية للأمويين خاصة وانه يفخر بعلمها[٣] . ويقدم عوانة على الأكثر الرواية الأموية للحوادث مقابل الرواية العراقية[٤] . وهذا يوضح ما يبدو من نبرة أموية في بعض رواياته، حتى إن تأكيد الأمويين على فكرة الجبر في تفسير الحوادث ينعكس في رواياته[٥] . ومع ذلك فإنه يورد أحياناً الروايات العراقية والمدنية التي تعكس آراء جماعات مضادة للأمويين[٦] . ولذا يمكن القول أن عوانة لم يكن متحيزاً لجهة خاصة.

وصلتنا روايات عوانة عن طريق ابن الكلبي والمدائني والهيثم بن عدي، وهؤلاء أخذوها عنه مباشرة أو من كتبه[٧] . ثم إن خطته في كتابه التاريخ العام

---

(١) انظر ROSENTHAL, *Muslim Historiography*, p. 92.

(٢) انظر الطبري ج٢ ص ١٩٧-٨ ؛ البلاذري - أنساب ج ٥ ص ١٣٢ - ٥، ١٥٩ ؛ الطبري ج٢ ص ٧٩١-٥ و ص ٢٣٩-٢٤٠ .

(٣) ياقوت - معجم الأدباء ص ٩٥ .

(٤) الطبري ج ٢ ص ٤٢٠-١ .

(٥) انظر البلاذري - أنساب ج ٥ ص ٤٠، ١٤٠، ١٩٤-١٩٥ وكذا الأنساب ن. آلوارت ص ٤٠ .

(٦) أنساب (ن. آلوارت) ص ١٩-٢١ في جانب الزبيريين ، و ٥٩-٦١ ضد الحجاج؛ والطبري ج٢ ص٣٠٩-٣١١ مع العلويين و ج١ ص ٩-١١ ضد الكوفة. انظر ياقوت ج ٦ ص ٩٤-٩٥ .

(٧) الطبري ج٢ ص ٤٢١، ٤٢٤، ١١٣، ١٨٩ .

على أساس التسلسل التاريخي أو على سير الخلفاء تمثل خطوة لها دلالتها في تطور الكتابة التاريخية ضمن الاتجاه القبلي. واستعمل عوانة الإسناد بصورة مفككة[١]، كما أن طريقة إيراده الشعر في أخباره تعكس أثر أسلوب قصص الأيام[٢].

وكتب سيف بن عمر (ت ١٨٠هـ/ ٧٩٦م)، وهو كوفي، كتابين يتناول أولهما «الردة» و «الفتوحات» وهو طريف في نظرته التاريخية التي تجمع بين الحركتين. ويتناول الثاني «الفتنة» وخاصة وقعة الجمل. ويقدم سيف في الأساس النظرة العراقية، ويستفيد بالدرجة الأولى من روايات قبيلته تميم. وأخباره عن الفتوحات (وخاصة فتح العراق) تميمية الميول وتتجه لأن تكون عاطفية على أسلوب «الأيام»، ومع ذلك فإنه استفاد من الروايات المدنية في أخباره [ومن رواته هشام بن عروة وابن إسحق][٣].

وكان نصر بن مزاحم (ت ٢١٢ هـ/ ٨٢٧م)، وهو كوفي، أول إخباري شيعي. ونجد كتبه تدور حول موضوعات تهم الشيعة [«الجمل»، «صفين»، «مقتل الحسين»، «مقتل حجر بن عدي»، «أخبار المختار» و«المناقب» أو مناقب الأئمة][٤]. وقد جمع كتابه المطبوع «صفين» من المقتبسات الموجودة ويمكننا فحصه للحصول على فكرة تقريبية، ففي «صفين» نلاحظ أن ميول نصر بن

(١) انظر ياقوت ج٦ ص ٩٤.

(٢) الطبري ج٢ ص ٤٦٣ وبعدها، الأنساب للبلاذري ج ٥ ص ٣٨-٤٠.

(٣) انظر الطبري ج١ ص ١٧٩٨ ٩، ١٨٧١؛ ابن حجر - تهذيب ج ٤ ص٢٩٥-٢٩٦، وانظر عن سيف WELLHAUSEN, *Shizzen und vorardeiten*, VI, p.3 off.

(٤) ياقوت ج ٧ ص ٢١٠؛ الذهبي - لسان الميزان ج ٣ ص ٢٣٢؛ الاسترابادي - منهاج ص ٣٥٣، الفهرست ص ٩٣.

مزاحم عراقية وعلوية، فهو يورد الحديث ضد معاوية وحزبه، ويورد الأحاديث الأخبار وحتى القصص ليسند قضية الإمام علي[1]. ومع ذلك فإنه حين يتناول مثالب معاوية لايخفي بعض النقد الموجه للحزب العلوي من خصومه. ونتيجة لميول نصر الحزبية نجد البعض ينتقده بشدة، بينما يثني آخرون عليه[2].

يعطينا نصر قصة تنبض بالحياة والحيوية للحوادث التي أدت إلى صفين وانتهت بالتحكيم ويكثر من الشعر والخطب خلال رواياته فترى كل الشخصيات البارزة تقول الشعر [من نظمها أو اقتباساً] وتورده حتى في المراسلات، وكثير من هذا الشعر موضوع. والكتاب شبه قصصي، فهو مجموعة من الأخبار المتتالية وفيه شيء من التخلخل في الحبك. ويجلب الانتباه أن معاوية يظهر في الكتاب كشيخ قبيلة، حتى إن بعض الأقوال التي قالها أبو سفيان في مكة ترد على لسانه هنا. ويلاحظ أن العناية بالتواريخ ضعيفة، كما أن الإسناد يستعمل بكثير من التساهل[3]. أما أسلوب الكتابة فهو مثل واضح لأسلوب قصص الأيام، وهو يعكس مجالس السمر، وينتهي بقائمة بأسماء أنصار الإمام علي البارزين الذين استشهدوا في صفين [وفق طريقة قصص الأيام]، وأخيراً نبين أن إمكان إعادة جمع الكتاب -من مقتطفات الطبري وابن أبي الحديد بالدرجة الأولى- تدل على قيمته في نظر المؤرخين.

---

(١) نصر بن مزاحم - صفين ص ٢٤٦-٧؛ ١٦٤-١٦٥، ١٥٨، ٣٥.

(٢) ياقوت ج ٧ص٢١٠؛ الذهبي - لسان ج ٦ ص ١٥٧؛ ابن أبي الحديد - شرح نهج البلاغة ج١ ص١٨.

(٣) انظر نصر بن مزاحم - صفين ص ٤٢، ٤٣، ١٨٥، ١٦٧.

وتصل دراسات الإخباريين قمتها عند المدائني (١٣٥ - ٢٢٥هـ/ ٧٥٢-٨٣٩م) وهو بصري استقر بعدئذ في بغداد. ويظهر أثر الإسناد عليه أقوى ممن سبق نتيجة للتطورات الثقافية[١]. ويظهر عنده الاتجاه نحو جمع أوسع وتنظيم أوفى للروايات التاريخية، وقد صار هذا ممكناً نتيجة التآليف السابقة، فنراه يأخذ من الإخباريين السابقين مثل أبي مخنف وابن إسحق والواقدي مضيفاً إلى ذلك بحوثه الخاصة، ويبدو أنه جمع بين الدراسات التاريخية والأدبية. ونظرة إلى القائمة الطويلة بمؤلفاته وكتبه (وتبلغ حوالي ٢٤٠) تبين أنه جال في دراساته من حياة النبي ﷺ إلى التاريخ العباسي، وتناول الفتوحات والخلفاء والأشراف والمعارك والشعراء... إلخ. كما أن أحد تآليفه «نسب قريش وأخبارها» [٢] كتب على خطة كتب الأنساب، وبعض كتبه كتلك التي تتصل بحياة الرسول ﷺ لا تتعدى كونها فصولاً للسيرة. أما تاريخه للخلافة «أخبار الخلفاء الكبير» فيبدو أنه أوسع مؤلفاته التاريخية إذ يتناول الفترة من خلافة أبي بكر حتى المعتصم، وقد كتب بأسلوب الإخباريين.

ويمثل المدائني درجة أعلى من أسلافه في البحث والدقة، ويظهر أنه اتبع أسلوب المحدِّثين في نقد الروايات، وبذا صار يتمتع بثقة أكثر من أسلافه. ثم إنه توسع أكثر ممن سبق في الأخذ من روايات المدينة، واستفاد من روايات البصرة، خاصة عن الخوارج وعن مدينة البصرة وعن فتوح خراسان وما وراء النهر. وقد جاء المدائني بأخبار أوفى وأكثر توازناً ممن سلف عن الحوادث

(١) انظر ياقوت - معجم الادباء ج٥ ص ٣٠٩.

(٢) انظر الفهرست لابن النديم ص ١٠٢.

والموضوعات التي تناولها، وقد أيد البحث الحديث دقته، وصار المصدر الأساسي للمؤرخين التالين.

٥ - وخدمت دراسات الأنساب علم التاريخ في المادة وفي خطة الكتابة، فقد تجددت العناية بالأنساب في الإسلام[١]، وجاء إنشاء «الديوان» بدافع جديد للاهتمام بها. وقد شجع الأمويون- ابتداء من معاوية- مثل هذه الدراسات ويروى أن الوليد ا لثاني أمر بعمل سجل واف بالانساب[٢]. ثم إن الحاجات الإدارية كتنظيم العطاء وإسكان القبائل في الأمصار أدت إلى وضع سجلات بالأنساب وعززت الاهتمام بها، يضاف إلى ذلك الخصومات القبلية، وأثر الأوضاع السياسية على وضع القبائل، وظهور ارستقراطية جديدة في الإسلام، والعوامل الاجتماعية -وكل هذه شجعت دراسات الأنساب. وأخيراً فإن المناقشات مع الشعوبية وتهجم هؤلاء على الأنساب أدت إلى تأكيد جديد على دراسة الأنساب.

جاءت المعلومات عن الأنساب في الشعر، خاصة شعر النقائض، وفي الروايات العائلية والقبلية، وفي سجلات دواوين الجند.

ظهر النسابون الأولون في الفترة الأموية، وكانت عنايتهم محدودة بأنساب قبيلة من القبائل. ثم ظهر نسابون عنوا بأنساب أكثر من قبيلة وذلك في فترة جمع الروايات في القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي.

وأول من كتب في الأنساب أبو اليقظان النسابة (ت ١٩٠هـ / ٨٠٥م)، ولم

---

(١) انظر مقدمة المنجد لكتاب «طرفة الأصحاب».

(٢) الفهرست ص ٩١.

يصلنا من آثاره إلا مقتطفات في كتب تالية، ولكنها أول أثر لجمع الأنساب من الروايات القبلية بالدرجة الأولى.

إن التطورات الثقافية، والصلات الوثيقة بين الأنساب والأخبار والدراسات الأدبية، تظهر في اثنين من الكلبيين. فمحمد بن السائب الكلبي (ت ١٤٦هـ/ ٧٦٣م) قام بدراسات في الأنساب واللغة والتاريخ. وتشير دراساته للأنساب إلى محاولة لجمع الروايات القبلية معتمداً -كما ادعى- على أفضل نسابة في كل قبيلة[١]. وبالإضافة إلى ذلك فإنه رجع إلى شعر النقائض ودرس نقائض الفرزدق على الشاعر الكبير نفسه. ومع أن المحدِّثين ينتقدونه ويتهمونه بالغلوِّ في التشيع، إلا أن مقدرته في الأنساب متفق عليها[٢].

وجاء ابنه هشام بن محمد الكلبي (ت ٢٠٤هـ/ ٨١٩م) وتابع دراسات والده في الأنساب وتقدم بها. ويظهر أن كتابه «جمهرة النسب» -ويوجد قسم منه في المتحف البريطاني- هو طبعة موسعة لمؤلف والده ويحوي ملاحظات مختصرة، بعضها مهم، عن مشاهير الرجال في كافة الحقول. وأصبح هذا الكتاب المرجع الأول للمؤلفين فيما بعد، ولكن الهمداني يعتبره ناقصاً في أنساب قبائل اليمن.

أما في دراساته التاريخية فإنه تناول تاريخ الأنبياء، والجزيرة العربية قبل الإسلام، وأيام العرب، والتاريخ الإيراني، والتاريخ الإسلامي. ومصادر

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ١٤٠، انظر أيضاً ابن حجر- تهذيب ج٩ ص ١٨٠؛ ابن سعد ج٦ ص ٢٤٩؛ ابن خلكان (القاهرة) ج١ ص ٦٢٧.

(٢) ابن حجر - تهذيب ج ٩ ص ١٨٠؛ ابن خلكان ج ١ ص ٦٢٥.

أخباره مختلفة؛ ففي تاريخ الأنبياء يأخذ عن «أهل الكتاب»، وفي تاريخ إيران يأخذ من الترجمات عن الفارسية ومن الأخبار والقصص المتداولة، وبعض معلوماته وثيقة. وهو يأخذ عن كتب عوانة وأبي مخنف. ويبدي حصافة خاصة حين يستفيد من الكتابات ومن الوثائق في كنائس الحيرة وهي تتعلق بتاريخ عرب الحيرة والعلاقات بين العرب والساسانيين. وهو يأخذ من القصص الشعبي في تاريخ اليمن، ولكنه لم يكن مدققاً كما يلزم، إذ أخذ الكثير من القصص الشعبي، ومن مواد أسطورية، ومن بعض الأخبار الموضوعة عن شعراء الجاهلية[1].

ومن النسابين مصعب الزبيري (ت ٢٣٣-٢٣٦هـ/ ٨٤٧-٨٥٠م) وهو من سلالة ابن الزبير، وكان مصعب عالماً بالأيام والأنساب، وكتب كتابين: «النسب الكبير» و«نسب قريش» وقد وصلنا الثاني منها، ويعتبر أفضل من كتب عن نسب قريش. وتدل خطة الكتاب على أنه اتبع إطاراً ثابتاً للكتابة، اتبعه ابن الكلبي من قبل والبلاذري فيما بعد، وهو يشير في كتابه إلى الزهري وإلى والده وإلى أهل النسب، وأحياناً إلى بعض الرواة[2]. ويعطي الانطباع بأنه رجع إلى مختلف الروايات الشفوية. والكتاب يلقي ضوءاً خاصاً على التحولات في الروابط القبلية وعلى التبدلات في خطوط الأنساب[3]. ويعطي الزبيري إضافة إلى سلسلة الأنساب أخباراً، بعضها مفصل ومهم، عن بعض

(١) انظر الفهرست لابن النديم ص ١٤٣؛ ياقوت - أدباء ج ٦ ص ٢٥٩؛ الذهبي - تذكرة ج ١ ص ٣١٣؛ الأغاني ج ٩ ص ١٩.

(٢) نسب قريش ص ٢٢٩، ٢٤٦.

(٣) نفس المصدر ص ٥، ٧.

الشخصيات المهمة من العصر الجاهلي حتى زمنه[١] . ويورد الشعر، وخاصة في الفترة الأولى، للاستشهاد أو التأييد. وبصورة عامة يظهر الكتاب قيمة دراسات الأنساب لكتابة التاريخ .

حين نأتي إلى الهيثم بن عدي (ت ٢٠٦هـ/ ٨٢١م) نرى مثلاً آخر للجمع بين الدراسات التاريخية ودراسات الأنساب وذلك نتيجة وجهات مختلفة للدراسة[٢] . فكتابه «تاريخ الأشراف الكبير» هو كتاب للتاريخ في إطار الأنساب سبق أنساب البلاذري. وكتب تاريخاً للفقهاء والمحدثين بعنوان «طبقات الفقهاء والمحدثين» على أسلوب كتب الطبقات ولعله أول كتاب من نوعه في هذا الاتجاه. وتظهر نواحي اهتمامه بالشؤون المحلية في كتابيه عن خطط الكوفة والبصرة، وكل منهما تاريخ للمدينة ويحتوي على معلومات طوبوغرافية وجغرافية. ويسترعي انتباهنا بصورة خاصة مؤلفه «كتاب التاريخ على السنين» وهو كتاب في التاريخ الإسلامي على توالي السنين[٣] . ولكن

---

(١) نفس المصدر ص ٤ ، ١٢٨ ، ١٤٥ ، ١٤٧ .

(٢) ألف كتباً تربو على الخمسين (انظر الفهرست ومعجم الأدباء) بعضها في أنساب القبائل، وفي أخبار القبائل وبيوتاتها، وفي المثالب وفي ولاة الأمصار، وفي الخطط وفي مواضيع أخرى كالخوارج وأخبار الفرس

(٣) في الطبري والبلاذري مقتطفات من مؤلفات الهيثم بن عدي، نشير إليها فيما يلي :

١ - التواريخ بالسنين من آدم إلى الهجرة [الطبري ج١ ص ١٠٧٢] ولعله من كتابه «هبوط آدم وافتراق العرب في نزولها منازلها» .

٢ - أسماء بعض كتاب النبي وأبي بكر وعمر [والطبري ج ٢ ص ٨٣٦]، والخلفاء الامويين بين يزيد بن عبدالملك وإبراهيم بن الوليد [الطبري ج٢ ص ٨٣٨] .

٣ - الفترة الاموية - وهنا ترد أخبار عن يزيد بن معاوية [أنساب الأشراف ج٤ ص١ ، ٨] وعن حركة ابن الزبير وعن يوم الحرة [أنساب ج٤ ص ٢١ ، ٣٠، ٣٩، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٩] وعن عبيدالله بن زياد=

الهيثم بن عدي يُنتقد بشيء من ضعف التدقيق وبالتساهل في استعمال الإسناد[1] .

وفي خلال القرن الثاني للهجرة شارك اللغويون في دراسة التاريخ . فالاتجاهات القبلية ، والمنافسات القبلية ، والمتطلبات اللغوية -كل هذه أدت إلى دراسة مركزة للشعر . وأكد هذه الدراسة الصراع الثقافي بين العرب والعجم بعد ظهور الحركة الشعوبية[2] .

وكان الشعر يروى من قبل رواة من البدو ، ويقدمون له عادة بمقدمة نثرية توضح ظروف نظمه وتشرح الإشارات التاريخية الواردة فيه . وقد أبدى بعض اللغويين - جنب ا هتماهم بمسائل النحو اللغة- اهتماماً بالأخبار والأنساب

= [أنساب ج٤ ص ٨١، ٨٣، ٨٤، ١٠١] وعن مروان بن الحكم [الانساب ج٥ ص ١٣٦، ١٥٢، ١٥٥، ١٥٩] وعن أيام عبدالملك - ابن الزبير [الأنساب ج ٥ ص ١٩١] وأمر التوابين [الأنساب ج٥ ص ٢١٢، ٢٣١] وإبراهيم بن الأشتر ومصعب بن الزبير ويوم حروراء [الأنساب ج٥ ص ٢٥١، ٢٦٣، ٢٧٥، ٢٨٢] وأمر زفر بن الحارث، ومقتل مصعب [الأنساب ج٥ ص ٢٩٦، ٣٠٥، ٣٣٥]، وأخبار أخرى عن عبدالملك ودخوله الكوفة [الأنساب ج٥ ص ٣٤٥ - ٦ ، ٣٥٢]، وبعض الأخبار عن هشام بن عبدالملك وخالد القسري [الطبري ج٢ ص ١٦٥٥، ١٦٥٨، ١٦٦٨].
ويذكر أخباراً عن (الدولة العباسية) تتعلق بالمنصور بالدرجة الأولى، منها العهد للمنصور، وبيعته، وبناء بغداد، ووفاته [الطبري ج٣ ص ٨٩، ٢٧٣، ٢٧٨، ٤٠١، ٤١١، ٤٢٠، ٤٢٩، ٤٥٦] وشيئاً عن المهدي [الطبري ج٣ ص ٥٣٢] . ويبدو أن أكثر أخباره مقتبس من مؤلفات مكتوبة إذ ترد الرواية عنه : «قال الهيثم بن عدي» و «ذكر الهيثم بن عدي» ، ولكن بعضها بالرواية الشفوية منه . وفي مقتبساته ترد رواية واحدة أو خبر واحد عن كل أمر أو حدث ولا ترد روايات متباينة حول نفس الموضوع .

(١) انظر الفهرست لابن النديم ص ١٤٥ ؛ ياقوت - أدباء ج ٧ ص ٢٦١ ؛ ابن خلكان - وفيات ج ١ ص ٢٤٩ .

(٢) الجاحظ - البيان والتبيين ج ٣ ص ٣٦٦ .

التي ترد في الشعر أو التي يشير اليها الشعراء وأظهروا ميلاً لكتابة التاريخ . ومن أمثلة هؤلاء أبو عمرو بن العلاء، وكان «أعلم الناس بالعرب والعربية والقراءة والشعر وأيام الناس»[١] .

ويمثل أبو عبيدة (١١٠-٢١١هـ/ ٧٢٨-٨٢٦م)، تلميذ أبي عمرو بن العلاء، نفس الاتجاه. وقد أخذ أبو عبيدة من شيوخه (مثل: أبي عمرو، ويونس ابن حبيب)، كما اتجه إلى الرواة البدو وجمع رواياتهم وهي تتعلق على الأكثر بقبائلهم. وقد أدى الاهتمام بروايات هؤلاء الرواة إلى قدومهم إلى المدن -وخاصة مربد البصرة- واستقر بعضهم فيها. وقد قام أبو عبيدة بدراسات واسعة تكاد تشمل حقل الروايات العربية الشمالية بكامله. وكانت هذه روايات عائلية، وروايات قبلية، وروايات محلية، إضافة إلى روايات الرواة، ويعتبره أبو الفرج «من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتها»[٢]، في حين يراه الجاحظ من أعلم أهل زمانه إذ يقول: «لم يكن في الأرض جماعي ولا خارجي أعلم بجميع العلوم منه»[٣] . ويشير ابن النديم إلى شمول دراساته فيقول «وله علم الإسلام والجاهلية»[٤] .

وقد كتب أبو عبيدة عدداً كبيراً من الكتب في تاريخ العرب وتاريخ صدر الإسلام. ووجهته في الكتابة هي وجهة اللغويين، أي أنه يجمع الروايات المتعلقة بحادث أو بموضوع في كتاب. وهكذا كتب عن المدن والأمصار، وعن

(١) طه الهاجري - أبو عبيدة، مجلة الكتاب المصري السنة الثانية ١٩٣٦ عدد ٦ ص ٢٨٠ .
(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٨٥ .
(٣) الخطيب البغدادي - تاريخ بغداد ج ١٣ ص ٢٥٢؛ ياقوت - ادباء ج ٦ ص ١٦٥ .
(٤) ابن النديم - الفهرست ص ٥٣ .

«المفاخرة» و «المثالب» القبلية، وفي «الأخبار»، وعن شخصيات تاريخية، وعن المعارك، وعن الأحزاب (الخوارج)، وعن القضاة، وعن الموالي، إضافة إلى دراسات أخرى عن الحديث و القرآن والشعر. واشتهر بعلمه بأيام العرب حتى جعله أبو العباس المبرد أعلم أقرانه «بأيام العرب وأخبارهم»، كما أشاد ابن قتيبة بعلمه بأيام العرب وأخبارها[1]. وأصبحت دراساته للأيام أساساً للمؤرخين فيما بعد[2].

وحاول أبو عبيدة أن يكون مدققاً، بأن ذكر رواته وأعطى الروايات المتباينة في موضوع ما، وقدم أحياناً سلسلة روايات يكمِّل بعضها البعض في توضيح الخبر. وهو في أخباره عن الأيام يعكس بأمانة الرواة البدو في الروح والأسلوب الأدبي. وقد اعتمد أبو عبيدة بالدرجة الأولى على ملاحظاته المكتوبة ومدوَّناته لا على الذاكرة، وهو بهذا يمثل المرحلة الثقافية التي عاش خلالها. وقد قيل عنه «أما أبو عبيدة فعالم ما ترك مع أسفاره يقرؤها». ويذكر عنه أنه «كان ديوان العرب في بيته»[3].

وقف أبو عبيدة موقفاً يسيء إلى العرب في الصراع الثقافي بين العرب والشعوبية. وقد كتب «كتاب الموالي» تناول فيه المسلمين من غير العرب كما يبدو، وكتب «أخبار الفرس» أو (فضائل الفرس كما يسميه ابن النديم) أعطى

---

(١) ياقوت - أدباء ج ٦ ص ١٦٥ .

(٢) انظر : غناوي - النقائض، الفصل الأول .

(٣) الخطيب - تاريخ ج ١٣ ص ٢٥٢؛ ابن النديم - الفهرست ص ٥٣؛ ياقوت - أدباء ج ٦ ص ١٦٤؛ اليافعي - مرآة ج ٢ ص ٤٤، ٤٦؛ ابن العماد - شذرات ج ٢ ص ٢٤ .

فيه الأخبار الفارسية. كما أنه كتب الكثير عن «مثالب العرب». وكل هذا يتمشى مع الخط الثقافي الشعوبي. وهو لا يتهم بالوضع في رواياته، ومنزلته العلمية عالية، إلا أن أخباره تكشف عن مثالب بشعة[1]. ومن المحتمل أن يكون أبو عبيدة شعوبياً ممن يسمون «أهل التسوية»، وقد ينسجم هذا مع نسبته إلى الخوارج[2].

وكان للحركة الشعوبية أثرها في الدراسات التاريخية. اذ إن أصحابها قاموا بجهود خاصة لتشويه تاريخ العرب والدس عليهم، كما أنها أدت إلى رد فعل واضح لدى العرب للقيام بدراسة واسعة لتاريخ العرب وأدبهم[3].

وكان «الشعوبية» والكتاب، مسؤولين عن توسيع الاهتمام بالثقافة الفارسية والتراث الفارسي، وقد شهد القرن الثاني للهجرة حركة شعبية واسعة للترجمة عن الفارسية، فترجمت كتب تاريخيه وشبه تاريخية. وأهم هذه الكتب هو كتاب الـ «خداينامة» الذي ترجمه ابن المقفع (ت ١٤٤هـ/ ٧٦٠م) عن الفهلوية وسماه كتاب (سير الملوك). وعملت ترجمات أخرى مباشرة لنفس الكتاب، كما ظهرت صور أخرى له هي ترجمات مع إضافات لأخبار تاريخية وأساطير

---

(١) الثعالبي - لطائف المعارف ص ٦٣ وانظر الفهرست ص ٥٣ .

(٢) الحاجري - مجلة الكاتب ج٢ ص ٤١٤؛ ياقوت - أدباء ج ٦ ص ١٦٤ ؛ ابن قتيبة - المعارف ص ٢٦٩ ورسائل البلغاء ص ٣٤٦ وانظر :

H.A.R, Gibb, The social significance of the Shu'ubyya in St. Or. Joanni Pedersen 1955.

Goldziher, Muh. Stud. I p. 194 off.' Pellat, Milieu Basrien de Jahiz, p. 142 off.

(٣) انظر مقال الأستاذ جب المشار إليه عن الشعوبية، والدوري- مقدمة في تاريخ صدر الإسلام ص ١٢ وما بعدها .

من كتب فهلوية أخرى، ووضعت مصنفات في نفس الموضوع تعتمد على تلك التراجم[١] .

تعطى الخداينامة قصة التاريخ القومي الإيراني كما يراه الأشراف ورجال الدين. وهي تحوي حكايات خرافية وأساطير من الاڤستا، وأحاديث دينية، وقصة الاسكندر المأخوذة من مصادر أجنبية، وأنساباً خيالية. وهي لاتفرق بين ما هو خرافي تماماً وبين ما هو شبه أسطوري وبين المعلومات التاريخية. ولعل الصورة المعطاة عن الساسانيين تاريخية أكثر من غيرها، ولكن المعروف عن الفترة الساسانية حتى يزدجرد الأول لا يتعدى القليل من المعلومات، ولذا سدت الفجوة بالإنشاء البليغ والخطب الرنانة.

وترجمت كتب أخرى غير الخداينامة مثل الآيين نامه (آيين نامغ) أو التقاليد والمراسيم، والكاه نامه (كاه نامغ) أو طبقات العظماء، وقصصاً تاريخياً وشعبياً، وكتباً تاريخية تستند إلى مواد الخداينامه مرتبة ترتيباً جديداً[٢] .

وهذه الكتب أدخلت عنصراً قصصياً ضعيفاً مع كثير مما هو أسطوري إلى المواد التاريخية. ولم يكن في هذه الكتب تسلسل تاريخي حسب السنين لأنه لم يكن للفرس تقويم ثابت. ومن ناحية ثانية فإن أسلوب كتابة التاريخ على توالي

---

(١) وجد حمزة الإصفهاني ثمانية ترجمات للخداينامة، واستفاد الموبذ بهرام مرادنشاه من عشرين ترجمة، ولم يجد عيسى الكسروي نسختين متطابقتين بينها. انظر حمز الإصفهاني - تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ص ٨-٩؛ والبيروني - الآثار الباقية ص ٩٩ .

(٢) انظر Christensen, L'Iran sous les Sassanides, p. 52 off. والترجمة العربية ليحيى الخشاب - ايران في عهد الساسانيين ص ٥٢ وبعدها؛ المسعودي - التنبيه والاشراف ص ١٠٦ وبعدها و WEST, Grundriss, II p. 117; *Noldeke-Geschichte der Perser und Araber, and Nationalepos.*

M. INSORANZEY - I*ranian influence on Muslim culture.*

السير كان معروفاً ومتبعاً لدى العرب قبل ظهور هذه الترجمات - ولذا سميت الخداينامة بسير الملوك، بينما أطلق على السلالات المتعاقبة اسم «طبقات»[1]. فكتب الأخبار عن الأسر الحاكمة تتألف من سلسلة «سير» للخلفاء المتعاقبين؛ ولذلك فإن كتب الخداينامة قدمت مادة تاريخية مشوشة لفترة ما قبل الإسلام، ولكنها لم تأت بفكرة أو بخطة جديدة لكتابة التاريخ، ويبدو أن دوافع الترجمة كانت سياسية وحضارية[2].

وهناك ترجمات عن اليونانية (أو السريانية)، ولكن هذه الترجمات كانت ثقافية ولا يوجد ما يدل على أي أثر لها في كتابة التاريخ.

وهكذا يتضح أن هذه الاتجاه للكتابة التاريخية نشأ عن استمرار ميول وبدايات سابقة وجدت دوافع جديدة وآفاقاً جديدة وإطاراً جديداً في الإسلام. وكانت الدوافع بالدرجة الأولى اجتماعية وسياسية ولدرجة محدودة دينية وإدارية، فالدعوة إلى «الجبرية» في الحوادث، وهي الدعوة التي تبناها الأمويون، لم تجد تأييداً يذكر في مراكز المعارضة مثل، الكوفة والبصرة، ولكن العصبية للأمصار، والسياسة الحزبية، والعصبية القبلية ينعكس أثرها في الكتابة التاريخية. كما أن العلاقات الثقافية والتطورات الثقافية تفسر التطور من روايات الرواة إلى كتب الإخباريين وكتب الأنساب، ومن الروايات الشفوية إلى المؤلفات المكتوبة. وما طلع القرن الثالث الهجري حتى نجد الاتجاهين التاريخيين -اتجاه المدينة، واتجاه الكوفة والبصرة- يلتقيان في حقول مشتركة للدراسة التاريخية وفي آراء تاريخية مشتركة.

---

(١) حمزة الإصفهاني (تاريخ سني ملوك الأرض ص ٨؛ المسعودي - التنبيه والإشراف ص ٨٥ وبعدها).

(٢) الجاحظ - البيان والتبيين ج ٣ ص ١٤، ٣.

٦ - وأنتجت الدراسات التاريخية المارة الذكر مادة تاريخية واسعة على مستويات مختلفة من الدقة، كما أن الاتجاه نحو استعمال أسلوب المحدثين في النقد ازداد قوة واستقر في العراق. وظهر الحماس للرحلة في طلب العلم -لغرض الدراسة ولجمع أكثر ما يمكن جمعه من المعلومات، وقد بدأ المحدِّثون في هذا النهج وتابعهم المؤرخون. كما أن الشعور بأهمية الخبرة المتجمعة لدى الأمة، وبأهمية الإجماع على نطاق واسع، تركز أكثر من قبل نتيجة التطورات الثقافية ووجد عناية خاصة. ثم إن المبادىء الإسلامية والاتجاهات الإسلامية تفوقت بصورة حاسمه على الاتجاهات القبلية في المجتمع، فأثرت هذه العوامل بمجموعها على نطاق الدراسات التاريخية وعلى النظرة إلى كتابة التاريخ.

وقد شهد النصف الثاني للقرن الثالث الهجري ظهور مؤرخين لا تحدهم مدرسة أو اتجاه مما ذكر، بل حاولوا أن يستفيدوا من مواد السيرة ومن «كتب» الإخباريين، ومن كتب الأنساب والمصادر الأخرى المتيسرة، وشملت دراستهم الأمة بصورة منظمة. وكان عملهم انتقاء المادة بعد النقد، وأفقهم عاماً أو عالمياً.

وأول ممثل للتطور الجديد هو أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م). وله كتابان مهمان هما، «فتوح البلدان» و «أنساب الأشراف». أما فتوح البلدن فيبحث تاريخ الفتوحات الإسلامية ويقدم قصة متسلسلة لفتح كل مصر. وقد أخذ البلاذري مادته من الكتب الخاصة بفتوح كل مصر، ومن المواد التي استطاع جمعها خلال زيارته للأمصار، ومن الروايات الأخرى المتيسرة. وطريقته في الكتابة هي في أن ينتقي المادة بعد الغربلة والنقد، وأن يعطي صورة

متزنة للحوادث، مع تجنب إيراد روايات متعددة حول الحادث. وهو يعتمد كثيراً على روايات المدينة كثيراً التي تتصف بالحياد والدقة أكثر من غيرها، كما أنه استفاد بالدرجة الأولى من الروايات المحلية. وقد أورد البلاذري كثيراً من المعلومات القيمة عن النواحي الثقافية والاقتصادية والإدارية.

أما «أنساب الأشراف» فهو كتاب علم للتاريخ الإسلامي في اطار الأنساب. وهو يمثل مزيجاً فذاً في الخطة والمادة. فخطته تجمع بين أساليب كتابة كتب الطبقات وكتب الأخبار وكتب الأنساب، وتشمل سيرة كل خليفة الأحداث التي وقعت على عهده بما في ذلك فعاليات الأحزاب السياسية، مع عناوين فرعية للحوادث المهمة تشبه عناوين «كتب» الإخباريين. وهو يراعي التسلسل التاريخي عادة، ومع ذلك توجد استثناءات فرضتها ضرورة مراعاة تسلسل النسب (مثلاً: يرد الكلام عن يزيد قبل عثمان بن عفان).

ينقد البلاذري مصادره قبل الأخذ عنها، ولكننا نلاحظ أن الآراء عن المؤرخين السابقين قد استقرت في عصره، وهذا ينعكس في مثل قوله: «الواقدي في اسناده» و«أبو مخنف في إسناده» إلخ[1]. ويظهر أن بعض الروايات كانت مقبولة لدى عامة المؤرخين كما يظهر من بعض أخباره التي تبدأ بـ «قالوا. . . .»[2]. ويظهر أن البلاذري في انتقائه لمادته التاريخية أعطى أهمية خاصة للروايات التي تعود للمنطقة التي وقع فيها الحادث وأتمها بروايات أخرى حول الموضوع. فمثلاً في حديثه عن «الشورى» يعتمد بالدرجة الأولى على الواقدي والزهري (المدينة) ويضيف إلى ذلك روايات عن أبي مخنف (وهي

(١) البلاذري - أنساب الأشراف ج ٥ ص ٣، ٣٦.

(٢) أنساب الأشراف، نشره آلوارت ص ٢٨٣ - ٥، ٢٨٧ - ٢٩٠.

أقرب للعلويين) ويأخذ عن الزبير بن بكار فيما يخص الأنساب. وفي أخباره عن عبدالملك بن مروان يعتمد كثيراً على المدائني (عن عوانة بن الحكم)، وعلى عوانة بن الحكم والواقدي (دمشق والمدينة) ويضيف إلى ذلك بعض الروايات العراقية. وفي أخباره عن وقعة «الحرة» يستند بصورة أساسية إلى المدائني والواقدي وعوانة و«أشياخ» من المدينة وبذلك يعطي روايات مدنية وأموية.

أما مصادر البلاذري فمؤلفات مكتوبة وروايات شفوية. فبعض التعابير مثل «حدثني» و«قال لي» تشير إلى روايات شفوية مباشرة، بينما تشير «روى» بصورة عامة إلى مؤلفات مكتوبة، في حين أن «قال» تعني أخذ رواية شفوية أو الأخذ من كتاب[1]. ويستعمل البلاذري الإسناد عادة في بعض رواياته التي تتعلق بحوادث المدينة زمن الراشدين، وفي بعض الروايات المنفردة، وإلا فإنه يأخذ عن مصدر سلسلة إسناده معروفة فيكتفي بذكره. وكثيراً ما يستعمل الاسناد الجمعي ليدل على الاتفاق على المعلومات الأساسية ثم يورد إضافات بسيطة[2]. ويحدث أحياناً أن يورد البلاذري عدة روايات بينها شيء من الاختلاف حول نفس الموضوع[3]. وترد لديه بعض الروايات المنفردة دون إسناد[4].

رغم اتصاله بالعباسيين فإن البلاذري محايد في أخباره ومتزن، فهو يفسح المجال لكافة الروايات ويحاول بصورة جدية أن يكون موضوعياً في أخباره.

---

(١) أنساب الأشراف ج٥ ص ٢٨، ٢٤ - ٢٥، ١٣٥؛ ج ٤ ص ٥٤.

(٢) نفس المصدر ج ٥ ص ٣٤.

(٣) أنساب الأشراف (نشر آلوارت) ص ٥٩؛ وأنساب الأشراف ج ٥ ص ١٩ - ٢٠، ٢٤.

(٤) يقول: «قال بعض أهل العلم».

ويعبر البلاذري في «أنساب الأشراف» عن فكرة وحدة الأمة واتصال خبراتها في التاريخ الإسلامي. أما «فتوح البلدان» فيظهر قيمة خبرة الأمة للأغراض الإدارية والتشريعية.

وحين نأتي إلى اليعقوبي (ت ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م) نرى أنه يعبر عن فكرة التاريخ العالمي. واليعقوبي مؤرخ من طبقة الكتاب يجمع بين ثقافة واسعة وخبرة عملية في الإدارة. وقد أمضى كثيراً من أيام شبابه في الأسفار وجمع المعلومات تاريخية وجغرافية[1]، وكتب كتاب «البلدان» في الجغرافية التاريخية وهو أول مؤلَّف من نوعه في العربية. كل هذا أثر في تاريخه من ناحية الأسلوب والمادة.

وتاريخ اليعقوبي عبارة عن خلاصة وافية للتاريخ العالمي (قبل الإسلام)، وللتاريخ الإسلامي حتى سنة (٢٥٩هـ/ ٨٧٢م). وقد راعى اليعقوبي في كتابته التسلل التاريخي للفترات والحوادث. فهو يبدأ بالخليقة (وهذا القسم مفقود من النسخة المطبوعة)، ولا يقتصر على تناول تاريخ الأنبياء، والتاريخ الإيراني، وتاريخ العرب قبل الإسلام، بل يتناول تاريخ أمم أخرى قديمة كالآشوريين والبابليين والهنود واليونان والرومان والمصريين والبربر والحبشة والزنوج والترك والصينيين، وبذلك يطبق فكرته عن تاريخ العالمي بصورة شاملة. ويبدو أن اهتمامه في هذا القسم من تاريخه- وبقدر ما تسمح معلوماته- انصب على الجوانب الثقافية، ويمكن القول أن مادته التي عرضها في كتابه تعكس امتزاج الثقافات في المجتمع الإسلامي. ونلاحظ أثر اهتمامه

(١) اليعقوبي - البلدان (المكتبة الجغرافية العربية مجلد ٧) ص ٢٣٣.

بالجغرافية في كتابته[1] كما أن رغبته في الفلك تظهر في كتابته عن التقاويم الفارسية والرومية في هذا القسم[2] وفي إعطائه معلومات فلكية عند تحديد بدء فترة كل خليفة في القسم الثاني.

يتخذ اليعقوبي نظرة نقدية إلى مصادره في القسم الأول، ففي كتابته عن تاريخ الأنبياء رجع إلى المصادر الأصلية، وهو دقيق في ذلك بشكل يسترعي الانتباه. وحين يتكلم عن التاريخ الإيراني يبين أن مواد هذا التاريخ قبل العصر الساساني أسطورية ولا يمكن الوثوق بها، وهو يأخذ من مؤلفات يونانية (مترجمة) حين يكتب عن الثقافة اليونانية.

أما في التاريخ الإسلامي فإن اليعقوبي يتبع أسلوب الانتقاء من الروايات بعد التدقيق. وهو يبين أنه رجع إلى «ما رواه الأشياخ المتقدمون من العلماء والرواة وأصحاب السير والاخبار والتأريخات» ووجد أنهم «اختلفوا في أحاديثهم وأخبارهم وفي السنين والأعمار»، فحاول أن يمحصها وأن يأخذ «أجمع المقالات والروايات» وأن يؤلف بينها لكتابة تاريخه. وهو لا يرى ضرورة لإعطاء الأسانيد وذلك لأن النظرة إلى الأسانيد التاريخية الهامة استقرت قبله؛ ولذا فإنه يكتفي بذكر مصادره الأساسية في مقدمة القسم الثاني[3]، ولا نجد بعد ذلك إشارات إلى مصدر أو سلسلة إسناد إلا في حالات نادرة[4]. ونلاحظ

(١) اليعقوبي - التاريخ (نشره هوتسما) ج ١ ص ٢٠٧ - ٢٠٨.
(٢) نفس المصدر ج ١ ص ١٩٩ - ٢٠٠، ١٧٨.
(٣) نفس المصدر ج ٢ ص ٣ - ٤.
(٤) انظر نفس المصدر ج٢ ص ٢٧، ٣٢-٣، ١٢٦، ١٥٩.

أن مصادره علوية، وعباسية [مثل: سليمان بن علي الهاشمي][1] ومدنيَّة [مثل: الواقدي وابن إسحق]، كما أخذ من الأخباريين [مثل: المدائني، والهيثم بن عدي، وابن الكلبي -في النسب] ومن بعض الفلكيين [مثل: الخوارزمي المنجم وما شاء الله الحاسب].

نلاحظ أن اليعقوبي متزن في أخباره وأنه بصورة عامة دقيق فيما أورد من معلومات، وقد جاء أحياناً بمعلومات فريدة[2]، وهذا لا يمنع من ظهور شيء من اتجاهاته في التفاصيل؛ فهو في حديثه عن الراشدين والأمويين يظهر ميولاً علوية أحياناً ويسهب في ذكر أقوال الأئمة وخطبهم ويعطي سيرهم عند ذكر وفياتهم[3]. ولعلنا نكون أدق إن قلنا: إن وجهة نظره «إمامية» إذ أنه يمر بإيجاز عرضي بثورة زيد بن علي[4].

وفي حديثه عن العباسيين يظهر شيئاً من التسامح أو المجاملة، فهو يسمي «الدعوة» بالدعوة الهاشمية[5]، ويسمي عصر العباسيين بـ«الدولة». وهو يورد روايات عباسية في أخباره[6]، كما أن حديثه عن المهدي العباسي يعكس

---

(١) انظر الجاحظ - البيان والتبيين ج٣ ص ٣٦٧.

(٢) انظر اليعقوبي - التاريخ ج ٢ ص ٤٧٩.

(٣) نفس المصدر ج٢ ص ٥٢ عن إسلام علي، وص ١٢٥ عن منزلته، وص ٣٥ عن أبي طالب، وص١٢٥ عن غدير خم، وص ١٢٦-٧ عن فضائل آل البيت، وص ١٣٧ عن السقيفة، وص ٢٢٠-١ عن وضع طلحه والزبير، وص٢٢٥-٦ عن الحسن بن علي، وص ٣١٥-٦، ٣١٨، ٣٢٠ عن عن نظرته للزبيرين، وانظر الصفحات ١٩١-٢، ١٩٥ وبعدها، ٢٥٦-٧، ٢٦١-٢، ٣٠٢-٣ عن الفترة الأموية.

(٤) نفس المصدر ج٢ ص ٣٩١.

(٥) نفس المصدر ج٢ ص ٣١٨، ٣٩٢، ٤٠٨.

(٦) نفس المصدر ج٢ ص ٤٠٩، ٤٢٩-٤٣١، ٤٣٣.

بصورة هادئة شيئاً من دعايات العباسيين في أن هذا الخليفة «مهدي» ينشر العدل[1] . وحين يتناول بعض الحوادث المحرجة للعباسيين مثل : مقتل ابن هبيرة وأبي مسلم وسقوط البرامكة يقدمها بصورة مناسبة، بل إنه حين يتطرق إلى وفاة الإمام موسى الكاظم يكتفي بذكر البيان العباسي . ولكن هذه النقاط لا تحد قيمة مؤلفه وأهميته ومنزلته في تطور علم التاريخ عند العرب .

وقد سار اليعقوبي على خطة دراسة التاريخ الإسلامي حسب توالي الخلفاء، إلا أنه مع ذلك راعى خطة تسلسل الحوادث على السنين[2] .

وحين يقترب اليعقوبي من عصره، يقتصر على ذكر الأخبار بإيجاز فنرى مثلاً أن ثورة الزنج الخطيرة لا يصيبها إلا ملاحظات بسيطة . وهذا يمكن تفسيره في ضوء خطة اليعقوبي . فقد أراد أن يكتب تاريخاً مختصراً مركزاً من المواد الواسعة المتباينة أمامه وذلك لإظهار تطور الأمة من جهة، ولسد حاجة ثقافية، وإذن فإن التاريخ المعاصر لا يساعد كثيراً في ذلك .

ولننظر الآن إلى ابن قتيبة (ت ٢٧٠هـ/ ٨٨٣م). فكتابه «المعارف» هو دائرة معارف تمتزج فيها مختلف خطوط الكتابة التاريخية، إذ نجد فيه فكرة كتابة تاريخ عالمي يبدأ بالخليقة وينتهي بأيام المعتصم . وتظهر فيه وجهة اصحاب الأخبار والأنساب في كتابة التاريخ، كما أنه يتناول «أيام العرب» بإيجاز . ويبدو فيه اهتمام الفقيه بطريقة الفتح هل هي صلحاً أم عنوة . وأعتقد أن الكتاب وضع ليسد حاجة الكتّاب إلى المعلومات التاريخية الأساسية .

---

(١) نفس ص ٤٣٢ وبعدها، ٤٧٥ وبعدها، ٤٧٩ .

(٢) انظر بصورة خاصة ما يقوله في ج ٢ ص ١٦٧ .

استفاد ابن قتيبه في كتابه «المعارف» من مصادر مكتوبة ومن الروايات الشفوية، وسلك سبيل انتقاء معلوماته التاريخية بعد نقد مصادره، ويلاحظ أن من ذكر من مصادره لهم منزلة عالية في حقول دراساتهم [مثل ابن إسحق والواقدي وابن الكلبي]. وكان ابن قتيبة أول من رجع إلى «العهد القديم» ليأخذ منه مباشرة عن بدء الخليقة وعن تاريخ الانبياء[1]. وتتميز مادته التاريخية بالحياد وبالتأكيد على الحقائق، ومع أنه يورد الآراء السائدة أحياناً[2] إلا أنه يعطي أحكاماً خاصة طريفة في بعض الأحيان[3].

وكتب الدينوري (ت ٢٨٢هـ / ٨٩١م) «الأخبار الطوال» وهو نموذج آخر للتاريخ العالمي، فهو وإن راعى التسلسل التاريخي في كتابته إلا أنه يركز على بعض الحوادث والحركات ويتناولها بشيء من التفصيل، وهذا ما يجعل تاريخه أقرب لأن يكون سلسلة من «الأخبار» التي يربط بينها، ففي فترة قبل الإسلام حاول أن يقدم صوراً متوازية مترابطة للحوادث في إيران واليمن والجزيرة العربية وبيزنطية، ولكن التاريخ الإيراني هو الغالب وله المكانة الأساسية في هذه الفترة. وهو لا يبدي اهتماماً بتاريخ الرسل ويمر بفترة الرسالة بسطور قليلة. أما في الفترة الإسلامية فإن حوادث العراق وإيران هي موضع اهتمامه بالدرجة الأولى.

ولا يظهر الدينوري كثيراً من القابلية على النقد في كتابه، ويبدي شيئاً من الميل للعباسيين في أخباره. ولا يبدي اهتماماً بالإسناد، إذ إنه أراد أن يعطي

---

(١) ابن قتيبة – المعارف (ن. وستنفلد) ص ٧ وما بعدها.

(٢) نفس المصدر ص ١٨٣، ١٨٦.

(٣) انظر نفس المصدر ص ٢٦٩ عن الحجاج.

خلاصة مأخوذة من مؤلفات أخرى، ويدل فحص مادته التاريخية على أنه جمع بين الإسرائيليات والمصادر الفارسية والروايات العراقية والمدنية.

وأخيراً نأتي إلى «تاريخ الرسل والملوك» للطبري (ت ٣١٠هـ/ ٨٢٣م) وهو يمثل قمة ما وصلت إليه كتابة التاريخ عند العرب في فترة التكوين، فقد كان الطبري طالب علم لا يعرف الكلل، فدرس على أساتذة في الري وبغداد والكوفة والبصرة والشام ومصر واستقر أخيراً في بغداد. وقد بلغ في علمه بالروايات التاريخية والروايات الفقهية منزلة لا تبارى.

إن نظرة الطبري إلى التاريخ وأسلوبه في كتابته متأثرة بدراسته وثقافته كمحدث وكفقيه، ولذا فإن طريقته في نقد الروايات تتجه إلى الإسناد، في حين أن مصادره مؤرخون لهم منزلة موثوقة في حقولهم أو في الموضوعات التي كتبوا عنها. وهو يعبر في كتابه عن فكرتين أساسيتين في التاريخ: وحدة الرسلات من جهة وأهمية خبرات الأمة واتصالها على الزمن من جهة أخرى. ومثل هذه الخبرات عظيمة الأهمية في سلوك الأمة في حالات الوحدة أو الاختلاف، وهي في الحالين توضح ما يصيب الأمة في تاريخها.

إن قيمة الروايات في نظر الطبري تعتمد على قوة أسانيدها، وكلما كان بدء السند أقرب إلى الحادثة كان أفضل، وهكذا وصلتنا عن طريقه كتابات تاريخية وروايات تاريخية مبكرة لم تحفظ إلا في تاريخه. والروايات قد تتأثر بعوامل مختلفة مثل: الذاكرة والميول والرغبات وغير ذلك، ولا يمكن الجزم بدقتها وسلامتها بصورة قاطعة حتى بعد نقدها وتمحيصها. وهذا ما يجعل «الرأي» أو الحكم الفردي غير مأمون، وقد يكون مربكاً، ولذا فيكفي نقل الروايات ممن يوثق بهم من الرواة والمؤرخين والعهدة في صحتها عليهم.

لذا فإن رأي الطبري فيما أورد يظهر في تمحيصه للروايات والأخبار وأخذ البعض منها دون الآخر، وهو يتجنب إعطاء حكم، ويندر أن يفضل رواية على أخرى ما دام قد أورد روايات مقبولة، ويبدي حياداً واضحاً فيما يورد من روايات.

وقد تأثر أسلوب كتابته بنظرته إلى الروايات، فهو في حرصه على إعطاء الروايات المختلفة حول حادث أو موضوع لا يستطيع تقديم تاريخ متصل للحادث. ويبدو أنه أراد أن يصنف كافة الروايات التاريخية العربية في كتابه -وهو منحى سبق أتباعه في الحديث- وهذا يفسر العدد الضخم لمصادره. وهذه خدمة كبرى قدمها الطبري، وهو بذلك ينهي العصر الأول في تطور الكتابة التاريخية لأننا لا نرى أحداً بعده حاول إعادة فحص المصادر التاريخية للفترات التي كتب الطبري عنها.

ويبدأ تاريخ الطبري بالخليقة ويتناول الرسل والملوك في القديم ويتنقل إلى تاريخ الساسانيين والعرب، ثم يتناول التاريخ الإسلامي حتى عصره (٣٠٢هـ). ولعل نظرته إلى التاريخ كتعبير عن المشيئة الإلهية وكمستودع للخبرات تفسر الإيجاز أو الضعف في القسم الأخير الذي يتناول التاريخ المعاصر.

٧ - وظهرت تواريخ محلية في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي. وبعضها تواريخ مصر من الأمصار مثل فتوح مصر لابن عبدالحكم (ت ٢٥٧هـ/ ٨٧٠م)، والبعض الآخر تواريخ لمدن مثل تاريخ واسط لبحشل (ت ٢٨٨هـ/ ٩٠٠م) وتاريخ بغداد لطيفور (ت ٢٨٠هـ/ ٨٩٣م). وقد وضع

بعض هذه الكتب نتيجة للدراسات المحلية للحديث فهي تعطي سير المحدثين الذين نشؤوا في تلك المدن أو مكثوا فيها فترة من الزمن، وتورد هذه السير على هيئة طبقات. والبعض الآخر كتب نتيجة الشعور بالولاء للمدينة (أو للمصر) والاعتزاز بها. وتتضمن هذه التواريخ عادة بعض المعلومات الجغرافية أو الخطط.

واذا استعرضنا ما مر نرى أن علم التاريخ عند العرب هو تطور طبيعيٌ في الإسلام. فالدين الجديد، وتكوين إمبراطورية، ووضع تقويم ثابت -كل هذه هيأت الأساس، ثم إن الاتجاهات الإسلامية المتمثلة في الاهتمام بسيرة الرسول، وباجماع الأمة وخبراتها، وبآراء وأحكام علمائها، وبالحوادث الكبرى التي حددت سيرها التاريخي، كانت الدوافع الرئيسية لدراسة التاريخ في المدينة، ومن جهة ثانية فإن الاتجاهات القبلية نحو العناية بالأنساب والأيام والشعر استمرت في المراكز القبلية الجديدة في الكوفة والبصرة في إطار جديد، ووجدت حوافز جديدة في التيارات السياسية والاجتماعية والمدنية الجديدة. وراء هذين الاتجاهين كان هناك الشعوز لدى الجميع برسالة تاريخية، وهذا يوضح لدرجة ما ذلك التنوع وتلك السعة في الكتابات التاريخية.

إن تطور الكتابة التاريخية يكون جزءاً حيوياً من التطور الثقافي، فالروايات المبعثرة -في الأخبار والحديث والأنساب- صارت تجمع من قبل الإخباريين أو المحدثين بصورة شفوية، إلا أن التاريخ لم يظهر بصورة ثابته إلا حين بدأ استعمال الكتابة لحفظ الأخبار والروايات. وكانت المرحلة الأولى في نشأة التاريخ محلية بالدرجة الأولى ومحدودة تقريباً في نطاقها، ففي المدينة مهد الإسلام انصب الاهتمام على السيرة وعصر الخلفاء الراشدين وفي الكوفة

والبصرة اتجه الاهتمام إلى الفعاليات القبلية والفتوحات. وهذه الظاهرة تبدو في جوانب ثقافية أخرى، في تطور الإجماع وفي دراسة الحديث، فقد كانت العناية بهما في هذه المرحلة تنحصر في نطاق مدينة أو مصر (المدينة، الكوفة مثلاً). ولكن اطراد أثر المبادئ والأفكار الإسلامية وتغلغلها في المجتمع على حساب الآراء القبلية والاجتماعية المحلية توضح حصول تطورات ثقافية جديدة مثل: ازدياد أهمية الإسناد وانتشار استعماله في الرواية، وتركيز الشعور بوحدة الأمة وأهمية خبراتها المتصلة. وعندئذ بدأ نوع من الجمع المنظم للأخبار والروايات التاريخية (وكذلك للحديث) من مختلف الأمصار، والاتجاه نحو كتابة تواريخ عامة بعضها ينطوي على نظرة عالمية للتاريخ قبل الإسلام.

وقد اعتبر التاريخ منذ البداية «علماً»[1]، وكان التأكيد على تمحيص الروايات ونقدها عن طريق الإسناد. ولما كانت الروايات والأخبار عرضة لتأثير الرغبات والميول الحزبية والعصبيات، لذا كان التأكد من سلسلة الرواة هو السبيل إلى التثبت من صحة الرواية. ويمكن القول بعد هذا إن ميول المؤرخ تظهر من نوع الروايات والأخبار التي يقبلها ويوردها، ويجوز إبداء الرأي بعد إيراد نص الرواية أو الخبر لا قبل ذلك، وتتكون الثقة بالمؤرخ حينما يورد الروايات المتباينة أو حينما يورد روايات مشهورة محايدة. وعلى هذا فدرجة التدقيق والنقد لدى المؤرخ تظهر في فحص الروايات بضوء ما ذكرنا.

إن الإسلام يعني بالحياة بصورة عامة؛ ولذا فإن شؤون هذه الحياة مهمة، كما أن التجارب والأمثلة ضرورية للسلوك الطيب. والتاريخ خير مرشد هنا، فإنه

(١) تستعمل كلمة «علم» بالمقابلة لكلمة «رأي».

يقدم من الامثلة ما يمكن المرء أن يحيا حياة أفضل، وما يساعد على تنوير الحكام ولذا فهو مهم للثقافة. ثم إن الإجماع مصدر مهم للتشريع، وسبيل أساسي للاتجاه السليم. والتاريخ بخطوطه الكبرى تعبير عن إرادة الله، أما الحوادث أو الحركات الفردية فالمسؤولية البشرية فيها أكيدة، ولذا تتباين الآراء فيها. فالتاريخ إذن وبصورة عامة مفيد لفهم تطور الأمة، وهو مفيد للدراسات الإسلامية الدينية حين يقدم تواريخ السير، وحين يعطي سوابق عملية للإدارة وحين يلقي ضوء على الخبرات والاجماع. ومن ناحية أخرى فإن الكثير من التاريخ كتب لأسباب سياسية أو اجتماعية وهذا يصدق على أكثر «كتب» الإخباريين، وقد يصدق كذلك على بعض التواريخ العامة اذ يتعذر أن نجد دافعاً لكتابة الأخبار الطوال (للدينوري) والمعارف (لابن قتيبة) غير الدوافع الثقافية العامة.

ولنذكر هنا أن مبدأ حرية الإرادة وجد مجالاً واسعاً (على يد المتكلمين والمعتزلة) في العصر العباسي الأول، ومع أن أهل الحديث انتصروا على المعتزلة سياسياً في النصف الأول للقرن الثالث الهجري، إلا أن التفوق الثقافي جاء بعد ذلك؛ لذلك يتعذر التأكيد -كما فعل البعض- على سيطرة مبدأ الجبر وما يترتب عليه في كتابة التاريخ في هذه الفترة، فالتسبيب إذن موجود في الفعاليات البشرية ضمن مشيئة الله في العالم.

ويظهر في كتابة التاريخ تأكيد قوي على عنصر الوقت، والتسلسل الزمني يراعى في كتب التاريخ بصورة عامة، وهذا يظهر في كتابة التاريخ على أساس تعاقب الخلفاء، أو تتابع الحوادث، أو توالي الطبقات ويصل حدوده الدقيقة في كتابة التاريخ على السنين. وكانت التواريخ والأسانيد العناصر الأساسية في

الضبط، وفي كتب الأنساب والطبقات يلاحظ الزمن في ذكر تواريخ الوفيات وفي ذكر الأعمار [وهذه تذكر لتعوض عن الشك في تواريخ الولادة]. فالتاريخ هو فعاليات البشر في أوقات معينة، وهذه النظرة إلى الوقت إسلامية.

اما أشكال الكتابة التاريخية فنمت من أسلوب «السيرة» وأسلوب «الأخبار» وأسلوب «الأنساب» وفكرة «الأمة»، وكان عنصر الوقت يتخللها جميعاً. وهكذا فإن «الكتب» التاريخية ترجع إلى أسلوب «الأخبار»، والسيرة والطبقات والسير ترجع إلى أسلوب «السيرة»، بينما تعود كتب التاريخ العام أو التاريخ على السنين إلى فكرة «الأمة»، وأخيراً يظهر أسلوب «الأنساب» في بعض كتب التاريخ العامة - وحتى تواريخ الأسر المتأثرة بصيغة الأخبار - وفي تواريخ أخرى.

كانت هذه القرون الثلاثة فترة التكوين لعلم التاريخ عند العرب، فيها وضعت خطط وأساليب كتابة التاريخ. وقد شهدت الفترة التالية عناصر ثقافية أخرى مثل الجغرافية والفلسفة والفلك تؤثر في كتابة التاريخ، ولكن الأفكار التاريخية والأساليب التاريخية لم يطرأ عليها تبدل يجلب الانتباه.

ملاحظة - نشير إلى بعض المؤلفات العامة في كتابة التاريخ عند العرب.

١ - دائرة المعارف الإسلامية (الملحق) مادة «تاريخ» بقلم الأستاذ هـ. أ. ر. جب.

2 - BROCKELMANN, C., *Geschicht der Arabischen Literatur,* 2 vols, (1898,1902)and Supplement 3 vols Leiden 1937-1942.

3 - MARGOLIOUTH, *Lectures on Arab Historians,* Calcutta, 1930.

4 - ROSENTHAL. F., *A. History of Muslim Historiography.* Leiden, 1952.

5 - BLACHERE, R., *Histoie de la Ltiteratue Arabe,* Paris, 1952.

6 - Fuck. J., *Muhammad ibn Ishaq,* Frankfurt am Main, 1923.

٧ - هوروڤتس - المغازي الأول ومؤلفوها، تعريب حسين نصار، القاهرة ١٩٤٩.

8 - WUSTENEFLD, F., *Die Geschichteschreichen und der Araber ihre Werke,* Leipzig, 1927.

obeikandl.com